توفيق الحكيم

ثورة الشباب

مكتبة علي بن صالح الرقمية

توفيق الحكيم

ثورة الشباب

قضية القرن الحادي والعشرين

مقالات

1975

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

مقدمة

كلُّ ثورةٍ دليلُ حيوية ... والشباب هو الجزء الحيوي في الجسم؛ فلا عجبَ أنْ يقوم بالثورة الشبابُ. وقلَّما تكون هناك ثورةُ شيوخ؛ لأنَّ الشيخوخة هي تناقُص الحيوية.

والثورة ما دامتْ متصلةً بالحيوية، فلا بد أن تكون منشِّطة لهذه الحيوية ومجدِّدة لها، وإلَّا اتخذَت اسمًا آخر هو «الهوجة».

والفرق بين «الثورة» و«الهوجة» هو أنَّ «الهوجة» تقتلع الصالح والطالح معًا ... كالرياح الهوج تطيح بالأخضر واليابس معًا، وبالشجرة المثمِرة والشجرة الصفراء جميعًا. أمَّا «الثورة» فهي تُبقي النافع وتستمدُّ منه القوة ... بل وتصدر عنه أحيانًا، وتقضي فقط على البالي المتهافِت، المعوِّق للحيوية، المُغلِق لنوافذ الهواء المتجدِّد، الواقف في طريق التجديد والتطور.

ولكنَّ المسألة ليست دائمًا بهذه البساطة؛ فالثورة والهوجة تختلطان أحيانًا، إنْ لم يكُن في كلِّ الأحيان. فالثورة كي تؤكِّد ذاتها وتُثبت أقدامها؛ تلجأ إلى عنفِ الهوجة لاقتلاع كلِّ ما كان قبلها ... وتجعل بدايةَ كلِّ خير هو بدايتها، وتاريخ كلِّ شيء هو تاريخها.

ولا يتغيَّر هذا الحال إلا عندما تشعُر الثورة بصلابة عُودها، وتوقن أنَّه قد أصبح لها وجهٌ واضح وشخصيةٌ متميِّزة ومكانٌ راسخ في التاريخ العام ... عندئذٍ تنبذ عنها عنصر الهوجة وتأنف منه، وتعود بكلِّ اطمئنان إلى تاريخ الأمة العام لتضع كلَّ قيمة في مكانها الصحيح، وتضع نفسها في الحجم المعقول، داخل إطار التسلسل الطبيعي لتطور أمَّة ناهضة.

إذا عرفنا ذلك، كان من الميسور أن نفهم حركات الأجيال الجديدة، أو ما يسمَّى اليوم بثورة الشباب.

ما من أحدٍ منّا لم يشعُر في شبابه برغبةٍ ما في الانطلاق عبْرَ بعض القيود ... ذلك مظهر من مظاهر الحيوية والحركة والتحرُّر وتأكيد الذات. ولكي نؤكّد ذاتنا ونُبرز شخصيتنا الخاصة، كان لا بد لنا من الانفصال عن شخصيةِ السَّلف ... ووسائلنا في ذلك مفتعلة كوسائلِ كلِّ ثورة في صِباها، وهي الرفض لكلِّ ما يقوله السَّلف.

ولكنْ في أيامنا نحن لم تكُن الهوَّة سحيقةً كما هي اليوم بين الآباء والأبناء؛ فلم يكُن العالَم قد شاهد بعدُ حروبًا عالمية، ولا مخترعات جهنميَّة، كان كلُّ شيء مستقرًّا في قوالبَ جامدةٍ وصناديقَ مختومة، والدنيا هادئةٌ نائمةٌ تغطُّ في عادتها المرعية وتقاليدها المقدَّسة.

ولكننا اليوم في عصرٍ مستيقِظ، يموج بالتغييرات المستمرة والتحرُّكات الفكرية والعلمية والسياسية التي تسبق كلَّ خيال، ما من شيءٍ راكد، أو يُسمح له بالركود ... وما من شيء مقدَّس، أو يُسمح له بعدم الخضوع للبحث والمناقشة.

ووسائل الاتصال بين العالم من إذاعات وتلفزيونات وأقمارٍ صناعية، قد جعلَت الأفكار في تحرُّرها وجموحها وسموِّها وانحطاطها في مُتناوَل كلِّ شخص.

مثل هذا العالم اليوم، ما تأثيره على الشباب الذي يريد أن يؤكِّد ذاته، ويكون له رأيٌ في تحقيق شخصيته ودورٌ في تشكيل المستقبل؟

ذلك كلُّه يجب أن نَعِيَه ونضعه في اعتبارنا ونحن نواجه الشباب اليوم، ومن واجبنا أن نُبصِّره أنَّه إذا كان من حقِّه أن تكون له ثورة؛ فواجبه أن يعرف الفرق بين الثورة والهوجة ... عليه أن يدرس ما يُبقيه ويحافظ عليه ويضيف إليه، وما يُلقيه وينبذه ويطرحه بعيدًا عن طريق نموه وتطوره وزمنه الجديد.

والحذر كلَّ الحذر أنْ نواجه الشباب في كلِّ حين بالوعظ والإرشاد، أو أن نترك الجوهر ونحادثه دائمًا عن المظهر، ونظنَّ القيامة قد قامت لاختياره شكلًا من أشكال اللبس أو نمطًا من أنماط شَعر الرأس. وننسى أننا في شبابنا في مطلع القرن، كان الشباب حتى من المعمَّمين يختارون ألوان الجبب والقفاطين زاهيةً فاقعةً من اللون الليموني الفاتح إلى البنفسجي والفستقي. أمَّا الشباب من المُطَربَشين، فكانوا يتَّبعون في شكلِ سراويلهم كلَّ جديد مُستحدَث، من البنطلون الضيِّق اللاصق، إلى المتَّسع «الشارلستون»، إلى المتَّخذ صورة القمع. وكانت السوالف تارةً والشوارب المدبَّبة تارةً أخرى، ثم بدعة الشارب الحليق التي قيل يومئذٍ إنها تخنُّث وتشبُّه بالنساء، فأصبحَت

اليوم هي القاعدة العامة السائدة بين الكبير والصغير ... كل هذه أشياءُ لا يليق بعصرنا الحاضر أن يُعيرها اهتمامًا ... وإنَّ الكبار عندما يجعلون منها قضيةً يَظهرون أمام الشباب بمظهرِ السخافة والتفاهة، ويفقدون في الحال الثقة والجديَّة والاعتبار.

نحن الآن في عصر الفكر المتحرِّك، ولا أمل في مواجهة ثورة الشباب إلا بوضعها في إطار الفكر والعقل والجوهر.

فلْنترك للشباب حريَّته في اختيار الشكل الخارجي والداخلي لحياته كما يفرضها عليه زمنه الجديد، ولا نطالبه إلا بشيء واحد، هو الإحاطة المتعمِّقة بحصيلة هذه الحضارة التي أوجدتْه ورضع من لبانها؛ ليحافظ ويُنمي ويُضيف إلى خير ما فيها، ويطرح ويغيِّر ويمحو ما فيها من شرٍّ وزيف ... لأنَّ مستقبل هذه الحضارة في يده هو وحده ... وصورتها غدًا سوف تكون كما يتصوَّرها هو ويصوِّرها، فلْتكُن إذن للشباب ثورة.

ولكنْ يجب أن يذكُر دائمًا الفرقَ بين «الهوجة»، و«الثورة».

توفيق الحكيم

حلقات الأجيال

«الأجيال تتماسك في الأمم، كما تتماسك حلقات السلسلة الفقرية في الأجسام.»

الدنيا حلقات! ... كلُّ جيلٍ يجب أن يمدَّ يده إلى الجيل الذي يليه! ... إذا تمَّ ذلك في أمَّة فقَدْ صحَّ كيانها واستقام، شأن الجسم السليم بسلسلته الفقرية المُتماسِكة، وإذا لم يتمَّ ذلك فنحن أمام كائنٍ سقيم، انفصلتْ حلقاتُ وجوده وانفصم عمودُ ظَهره، ولم يعُد يصلح للبقاء! ... وإذًا كان من واجب القادة أن يرسلوا البصر إلى خمس سنوات أو عشر إلى الأمام، يعدُّون خلالها برامج الإنتاج؛ فإنَّ من واجبهم أيضًا أن يعدُّوا الرجال الذين يَخلُفونهم في مراكز القيادة! ... بهذا لن تكفَّ عجلة التقدُّم عن المسير!

والإنتاج الفكري ككلِّ إنتاجٍ يجب ألَّا يشذَّ عن هذا المبدأ، وعلى المفكِّرين أن يرسلوا، هُم قبل غيرهم، ذلك النظرَ البعيد إلى حياة الفكر في خلال ما يستقبل من أعوام، وأن يعدُّوا الأمر، ليحتلَّ غيرُهم ما احتلُّوا من مقاعد، وأن يمهِّدوا الطريق أمام المواهب الجديدة، لتظهر وتُزهر وتُؤتي ثمراتها! ... فإنَّ السؤال الذي يجول دائمًا في الخواطر هو: ما الذي سيحدُث في العشرة أو العشرين عامًا المقبلة؟ ... هل الأمل معقودٌ على طائفةٍ من الأدباء يمكن أن تبرز بنوبتها في الصفِّ الأول؛ لتَمضي في رفع مِشعل الأدب والفكر في هذا البلد؟! أو أنَّه كما يقال: «ليس في الإمكان أبدع ممَّا كان؟!»

رأيي أنَّ إمكان الإبداع ممتدٌّ في كلِّ أوان! ... فالإبداع شيءٌ حيٌّ متحرِّك في الزمان والمكان، لا يتعلَّق بالماضي وحده، ولكنَّه كالشجرة يمتدُّ ويتطوَّر في مختلف الفصول، يبدِّل ويغيِّر في أوراقه وفي مظاهر إيناعه وإثماره، ماضيه متصلٌ بحاضره، وحاضره مرتبطٌ بحبل مستقبله! ... إنَّ المجهودات تُبنى فوق المجهودات ...

والمواهب تنبع من المواهب، والإبداع يؤدِّي إلى إبداع ... والثمرة تخرج منها الثمرة، وكلُّ هذا في فلك يدور، ولا ينفكُّ عن الدوران إلى آخِر الأزمان!

ونحن — إذا جُلْنا اليومَ في حديقة الأدب العربي الحديث — وجَدنَا أشجارًا مملوءةً بعصير الحياة، يانعةً بأزهار الفنِّ، لا ينقُصها إلَّا أن ننظُر إليها بعين الرضا، وأن نتخيَّل ما ستكون عليه غدًا من سُموقٍ وارتفاع؛ فلا شيءَ يُفسد الحديقة ويُقْفِرها ويُفْقِرها، مثل أن نرى دائمًا أشجارها شُجيرات، لن تكون يومًا ضخمةَ الجذوع وارفةَ الظِّلال! ... يجب أن نروِّض عيوننا على أن ترى الأشياء والأشخاص في غَدِها — لا في حاضرها وحده — وأن نعرف كيف نقرأ المستقبل من خلال سطور الحاضر! ... إذا استطعنا ذلك، فما من شكٍّ أننا واجدون في مختلف فروع الأدب أقلامًا، سيكون لها من الصَّدارة والقيادة في الأعوام العشرة أو العشرين المقبلة، مثلما كان لأصحاب الصَّدارة والبُروز في العشرة أو العشرين عامًا الماضية!

فحديقة الشباب تزخر بأزهارٍ طيِّبة الأريج، لا سبيلَ هنا إلى تَعداد صنوفها وألوانها! ... وكلُّ ما أردناه هنا هو أن ندعم الأمل في غدنا الأدبي، وأن نتساءل عن واجبنا إزاءَ هذه النُّخبة من أعلام الغد — أولئك الذين يُمسكون بطرَف الخيط من وجودنا ليصبحوا غدًا امتدادنا — وأن نحاسب أنفسنا، نحن الذين تقدَّمناهم في حلقة الزمن، عمَّا صنعناه من أجلهم، وعمَّا يجب أن نصنع بالوارثين لنتائج جهودنا! ... قبل كلِّ شيء يجب أن نعلم: أهُمْ حقًّا في حاجة إلينا؟ ... وأيَّ نوعٍ من المعونة هُم مفتقرون إليه؟ ... أهو مجرَّد اهتمام بأعمالهم؟ ... ما من شك في أنَّ الاهتمام خيرُ نافخٍ في همَّة الفنَّان؛ فإن الفنان لا يصبر طويلًا على الإنتاج لنفسه! ... إنه يعمل كي يسمع لعمله صدًى ... إنه زهرةٌ تعيش بأشعةٍ من نظرات الناس! ... أخيرًا كانت تحمل تلك النظرات أم شرًّا؟ إنَّ الفنان لا يهدمه الذمُّ ولا القدح بل يدعمان وجوده. إنما الذي يهدمه حقًّا «الإهمال»! ... كفنه منسوج من العنكبوت، ومدفنه تحت غبار النسيان، ومن خيرة الفنانين من توهَّم أنَّه مُهمَل فدفن فنَّه حيًّا، وانطلق يجِدُّ في عملٍ آخَر من أعمال الدنيا، لا صلة له بأدبٍ، ولا بفنٍّ؛ فخسره الفنُّ والأدب!

لا بد إذن من التنويه بأعمال الفنانين والأدباء، وإشعارهم، من حينٍ إلى حين، أنَّ رسالاتهم إلى قلوبنا وعقولنا قد وصلتْ، وأننا لجهودهم شاكرون، ولمزاياهم عارفون! ... ولكنْ ما هي الطريقة؟ ... ما من شكٍّ في أنَّ علينا نحن أن نصنع شيئًا من أجل الذين جاءُوا بعدنا! ... لطالما اتُّهمنا بالأثَرة والانصراف عن مساعدة الآخَرين، وربما

كان في هذا الاتَهام بعضُ الصواب؛ فقد شُغلنا عن ذلك زمنًا ... لا عن أثَرةٍ وحُب ذات، بل لتوهُّمٍ طبيعي أننا نستطيع أن نحمل في الأدب كلَّ الأعباء!

ولعل هذا من دوافع العمل المشروعة؛ أن نتصوَّر أنه لن يتمَّ شيءٌ إلا بأيدينا نحن! ... فلقَدْ جاهدنا كثيرًا، وأنفقنا أغلب العمر في التكوين والإعداد واستكمال الأداة الفنية؛ كما لو كنَّا نحن وحدنا المنوط بهم فتْحُ الحصون وبناء القصور!

ولكنَّ الحياة علمتْنا أننا لن نستطيع أن نفعل أكثر من شقِّ طُرق ووضْعِ أُسس، وعلى غيرنا أن يبني! ... شُعورنا اليوم شعور مَن يولد له الولد على كِبَر! ... إنَّه يُفيق فجأةً على نظرةٍ أخرى إلى الأشياء؛ إنه لن يرى نفسه مركزَ دنياه، المسئُول وحده عن الرسالة ... ولكنه يرى دنياه حلقاتٍ يكمِّل بعضها البعض، ويرى أن صغيره لم يُولدْ عِبئًا، بل خُلِق ليُكمل شيئًا لن يستطيع هو إتمامه، وأنَّ عليه منذ اليوم واجبًا آخر غير مجرَّد الإنتاج؛ عليه أن يُعِين خَلَفه على الوقوف على قدمَيه، ليحمل «بدوره» رسالته على منكبَيه!

غير أنَّ المشكلة التي تحيِّرنا دائمًا هي: وسيلة المعونة! ... أهي في تجنيب الجيل الجديد أخطاءنا؟ ... أم هي في إشعاره بأخطائه؟ ... أهي في إعداده قبل الظهور؟ ... أم في إظهاره قبل الإعداد؟! ... ثم أولئك الذين قطعوا في فنِّهم شوطًا، وظهروا بعض الظهور، وبدتْ مواهبهم متألِّقة كقِطَع النور، أعلينا إزاءَهم واجب؟ ... ما هو؟ ... وما السبيل إلى الوفاء به؟ ... إنَّا جميعًا لعلى استعدادٍ أن نؤدِّي واجبنا، ولن نُحجم عنه أبدًا إذا عرفنا الوسائل وملكنا الأسباب!

تبعات الأجيال

كلُّ جيلٍ مسئولٌ عن أفكاره التي قد تتسرَّب — بعلمه أو بغير علمه — إلى نفوس الأجيال الجديدة ... لذلك يحسُن تفسير تلك الأفكار من حينٍ إلى حين، حتى لا يُساء فَهْمها!

من ذلك أنَّي رأيتُ بعض الشبَّان ينزحون اليوم إلى بلاد الغرب في طلب العلم، فيصطدمون بحياةٍ أخرى وحضارةٍ أجنبية ... فإذا هم أحيانًا، يفكِّرون ويشعُرون شعورَ «محسن» وتفكيره في كتاب «عصفورٌ من الشَّرق» يومَ ذهَبَ بعد الحرب العالمية الأُولى إلى الغرب ... فهُمْ يَهيمون مثلَه باحثِين هناك عن «الرُّوح» ... وتسيطر على تفكيرهم مثلَه فكرةٌ واحدة؛ هي روحانيةُ الشرق وعَظَمتها ومواضعها ومنابعها! ... ثم يسيرون خلْفَ «محسن» الآخَر في كتابِ «عودة الرُّوح» ينقِّبون كما نقَّب عن منبع ميراثهم الثقافي والروحي، في «رواسب» الآلاف من السنين الكامنة في ضمير مصر. ريفها وأهلها الصادقين! ... ويعتزُّون مثلَه بأصالة الشعب المصري، ويردِّدون ألفاظه المباهية بعراقة حضارته! ... إلخ.

من الخير بالطبع، أن ندَعَ هذا الشباب يعيش في مثل هذه المشاعر والأفكار! ... لكنْ من الخير أيضًا أن نقول له: قدِّسْ ماضيك دون أن تذهب في ذلك التقديس إلى الحدِّ الذي يجعلك تُوصِد رُوحك دون تلقِّي كلِّ جديدٍ ينفعك، ولو كان ذرَّةً من أشعة! ... اغترفْ بشجاعة من كلِّ منبع، وخذْ من كلِّ ميراثٍ لتُثري نفسك، ويتَّسع أفقك!

هذا قولٌ من واجبي أن أكرِّره دائمًا!

فالخطر على غَدِنا، كلُّ الخطر، من ذلك الفهم المحدود لكلمة «طابعنا»، ومن تلك الفكرة التي تجعل الشباب يتَّخذ من روحانيته الشرقية، ورواسب حضارته المصرية سُجونًا وحصونًا تعزله عن تفكير العالم، وتمنعه من المساهمة في النشاط الفكري الإنساني العام بقوةٍ وشجاعة، دون أن يرى بهَلَعٍ في الثقافة الغربية أو الحضارة الأجنبية غيلانًا تستطيع أن تخطف بسهولة روحه من بين جنبَيه! ... إنَّ روحنا أقوى

وأعمق من أن تطغى عليه حضارةٌ من الحضارات ... فلماذا كلّ هذا الخوف من مواجهة الحضارات الأخرى؟!

كلُّ مَن أراد أن يكتب عندنا قصةً، حَرصَ على أن يكتب تحتها بخطٍّ واضحٍ: «قصةٌ مصريَّة»! ... وعُني بأنْ يُجري حوادثها في الأحياء الوطنية، ويصبغها صبغًا عنيفًا بالألوان المحلية! ... كلُّ ذلك ليُقنع نفسه بأنَّه يصنع فنًّا قوميًّا ذا رُوح مصرية أصيلة.

كلُّ هذا نوعٌ من مركب النقص، أو من الخوف، لا مبرِّر له ... إنَّ الرُّوح المصري الأصيل يستطيع أن يطبع أيَّ موضوعٍ يمسُّه، ولو كان في محيطٍ أجنبي، كما استطاع الرُّوح الإسلامي أن يطبع فنَّ العمارة، الذي استنبطه من الوثنيين والبيزنطيين! ... وكما استطاع «شكسبير» أن يطبع بشخصيته الأساطير التي نقلها عن الإيطاليين، والدنماركيين، والشرقيين!

بل إنَّ جانبًا كبيرًا من الآداب الكُبرى يتعمَّد أن يتَّخذ موضوعه بلادًا وأشخاصًا أجنبية عنه؟ ... وهو مُمْتلِئُ الثقة بأنَّ الموضوع الأجنبي لا يؤثِّر مقدارَ شَعرةٍ في لون الطابع الشخصي لهذا الأدب! ... هذا هو الأدب القوي الواثق بنفسه، يطبع بخاتَمه ما شاء من موضوعات، ويدَعُ عَلَمه يرفرف على ما شاء من بلاد!

فكرةٌ أخرى تحتاج إلى تفسير، نُشرت منذ أعوامٍ في صفحة ١٠٥ من كتاب «تحت المصباح الأخضر» هذه السطور:

«إنَّ سُفور المرأة في مصر قد سبَقَ سُفور الأدب! ... من أجل هذا نرى أن جانبًا كبيرًا من أدبنا الحديث، ما زال أدبًا «حبيسًا» تفوح منه رائحة الحُجرة المغلَقة! ... أدب صناعة، وأدب «عُلَب محفوظة» من التعبيرات المستعارة، والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين!

أمَّا أدب الهواء الطلق، أدب التعبير عما في أعماق النفس في حرية وأمانة وإخلاص، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية. هذا الأدب الخارج من القلب؛ ليخاطب كلَّ قلب على وجه البسيطة، هذا الأدب العالمي الذي يؤثِّر في

نفس كلَ أمَّة وكلَ جنس وكلَ آدمي؛ لأنه نبَعَ صافيًا خالصًا حارًّا من قلبٍ آدمي، هذا الأدب حظُّنا منه قليل؛ لأنَّ حظَّنا من الصراحة والصدق قليل!» ... إلخ.

هذا كلامٌ جرَتْ به الأقلام اليومَ كثيرًا ... كما ردَّدَت الألسُن عباراتِ «الفن والحياة» و«الفن والشعور» و«الفن والصدق» ... إلخ؛ مما يدلُّ على أنَّ معنى الأدب أخذ يتحوَّل إلى الاتجاه المثمر، في مجتمعنا المعاصر ... لكنْ هل معنى ذلك أن نكفَّ عن النظر في كتب الأقدمين؟

أرى من واجبي أيضًا أن أوضِّح ... لقد أحيَتْ وزارة المعارف ذكرى أبي العلاء المعرِّي، وأخرجتْ كتاب «سِقطُ الزَّند» فعكفتُ على مطالعته من جديد! ... وخرجتُ من ذلك أقول: «فنٌّ هذا العبقري «رهين المَحبَسَين» ... أهو فنٌّ هواءٍ طلْقٍ وقلبٍ وشعور وحياة؟! أم هو فنُّ رجلٍ ضرير حبيس حُجرة مغلقة يمتعنا حقًّا؟! ... ولكنه إمتاعٌ لا يُثير عواطفنا، بقَدْر ما يُثير تفكيرنا، ولا يهزُّ قلوبنا بقَدْر ما يهزُّ رءُوسنا، ولا نجِد فيه اللذة سهلةً ميسَّرة، ولكننا نبلُغها بذهننا بعد كدٍّ وجدٍّ وغوص؟!»

إذن يجب أن أوضِّح للشباب كلامي المطلق الذي نشرتُه منذ أعوام، وأن أقول لهم إنَّ الشعور الحارَّ وحده، بما يثيره من انفعال، ليس هو كلَّ الفنِّ، ولا هو خيرُ الفنِّ في بعض الأحيان؛ لأنَّ المتعة التي تأتي من غير غوص، هي في أكثر الأحوال رخيصة! ... وآلام «فرتر» العاطفية أقلُّ رُتبة في نظر «جوته» نفسه، وتاريخ الأدب من «فاوست» الذهنية! غموضُ قولي السابق، أتى من أنِّي لم أحدِّد معنى «القلب»! ... القلب في الفنِّ هو الصدق — لا الصدق بمعناه الضيِّق، المقصور على الشعور العاطفي أو الوجداني — بل أيضًا صدق الشعور بحقيقة فكرة من الأفكار!

على هذا النحو يجب كذلك تحديد معنى «الحياة» في الفن! ... ما من شكٍّ أنَّ الفنَّ هو تعبيرٌ عن الحياة ... وليس من السهل تصوُّر فنٍّ منفصلٍ عن الحياة، إلا أن نتمثَّل فنَّ الزخرف الإسلامي الذي لا يصوِّر زهورًا، ولا طيورًا، ولا حيوانًا! ... ويقوم على تخطيطٍ هندسي! ... فنٌّ عريقٌ بديعٌ لا شكَّ فيه، ولكنَّ نسبته إلى الحياة التي نعرفها تحتاج إلى مشقَّة في التخريج! ... هذا التجريد الذهني في الزخرف الإسلامي، يماثله التجريد الذهني في الفنِّ المصري القديم، بخطوطه الرئيسية العارية من اللحم والدم! ... لقد كان همُّه أن يُحيي الفكرة في الحجر، لا أن يقلب الحجر حياةً كما فعَلَ الإغريق.

مهما يكَن من أمرِ تفضيلنا هذا النوع أو ذاك؛ فإنَّ اختلاف العقليات والاتجاهات والأنواع في الأدب والفن، يحملنا على أنْ نوسِّع معنى «الحياة» حتى تشمل كلَّ هذه الألوان من الآداب والفنون.

لا بد أن تكون «الحياة» في الفنِّ، ليست بعض ما يقع في العالم الخارجي ويضطرب فيه الإنسان بحسِّه ومشاعره فقط، بل أيضًا كل ما يقع في العالم الداخلي ويستخرجه الإنسان بفكره وذهنه وتأمُّلاته! ... إنَّ الحياة في الأدب والفن هي الحياة كلُّها — الحياة الكاملة، بمعناها الواسع العميق — تلك «الحياة» التي تسكن في كلِّ جزء من أجزاء الإنسان الحي في قلبه، وفي غريزته، وفي حسِّه، وفي رأسه!

* * *

ذلك بعضٌ من تلك الأفكار التي تركناها تسعى من جحور الكتب إلى وعي الشباب دون انتباه! ... حبَّذا لو عُدنا من حينٍ إلى حين؛ بأيدينا أو بأيدي غيرنا من النقَّاد والباحثين، نراجع ما نشرنا، ونسترجعَ ما أصدرنا؛ لنعيده مفسَّرًا مجدَّدًا، كما تفعل المصارف المالية عندما تسترجع من أيدي الناس أوراقَ العُملة القديمة لتردَّها في حالةٍ جديدة!

انفصال الأجيال

العلاقة بين الأجيال ظاهرةٌ طبيعية، تسترعي دائمًا النظر، وتستوجب الدراسة والبحث، ولكنها في «مصر» اتَّخذت من الصُّور ما يُثير العَجَب ويحيِّر الفِكر؛ فلقَدْ شاهدتُ بنفسي صورتَين متناقضتَين كلَّ التناقض، أمَّا الصورة الأُولى فهي التي عاش في إطارها جيلنا والأجيال التي سبقتْه ولا حاجة بي أن أصِفَها بالقول! ... يكفي أن أُورد واقعةً واحدة، فيها كلُّ الدلالة والمغزى:

سمعتُ المرحوم والدي يتحدَّث عن أبيه باحترامٍ عميق في كلِّ مقام، وكان أبوه ممَّن تعلَّموا في الأزهر، ثم أقاموا بعدئذٍ في الريف، يزرعون ما يملكون من أطيان! ... وكان والدي قد أوغل في الحلقة الرابعة ورُقِّي إلى منصب القضاء ... وطفق أبوه في ذلك الحين يتصرَّف في أطيانه بالرَّهن والبيع، ثم يعود إلى الشراء والاقتناء، ثم يقترض ويتعهَّد ويتعاقد! ... فقال بعض أصدقائه: هذه تصرُّفات قانونية، وابنك قاضٍ من خيرة القضاة، ألَمْ تستشره؟

فما كان من الأب إلَّا أن صاح: ابني؟! ... أستشير العيال؟!

ولم يكُن والدي يجدُ غضاضةً في ذلك القول ... وكان يتلقَّاه بابتسامةِ التسامح، وشُعور التوقير، ولو أنَّه في دخيلةِ نفسه ما أراه اعتقد أنَّ أباه كان على صواب! ... إنِّي ما سمعتُ قَط منه نقدًا لأبيه، فقَدْ كان ينحني على يده يقبِّلها أينما الْتقى به! ... وكان يلتمس له المعاذير، ويبرِّر كثرةَ زواجه بأنَّه كلَّما تزوَّج واحدةً وجَدَها أجهلَ من سابقتها ... غير أنِّي، على قَدرِ ما تُسعفني ذاكرتي، قد خيِّل إلي وقتئذٍ أنَّ والدي كانت له نظرةٌ أخرى في الصلة التي يجب أن تقوم بين الآباء والأبناء، ولكنْ حدَثَ بعدئذٍ ما جعلني أضرب كفًّا بكفٍّ من الدَّهشة والعجَب؛ فقَدْ صِرتُ — أنا بدوري — في الحلقة الرابعة وانخرطتُ في سلك القضاء، وشاهدتُ المرحوم والدي يتصرَّف بالرَّهن تلوَ الرهن في بيتٍ كنَّا نعتزُّ به، ويقابل أمامي كلَّ مَن هبَّ ودبَّ من السماسرة والمُرابين، يُسرُّ إليهم الحديث ويهمس لهم في الآذان، ولا يخطر بباله قَط أن يكشف لي عن جليَّةِ

الأمر وبواعث التصرُّف، أو يسألني رأيي المتواضع، فيما هو مقبلَ عليه، وأنا الذي أحقِّق كلَّ يوم في تصرُّفات الناس، وأفحص وأزِنُ ما لهم وما عليهم من حُججٍ وبيِّنات، وأتحمَّل في أرواحهم وحرياتهم وأموالهم، أخطرَ التَّبِعات!

ومع ذلك قامت في نفسي ثورة، وما ارتفع لي في حضرته صوتٌ، وما كنتُ ألقاه وأنا في ذروة العمر إلا بتقبيل يده والإصغاء إلى نصائحه.

* * *

تلك صورةٌ طواها الزمن — فيما أعتقد — ونشَرَ صورةً أخرى لجيلٍ جديد، يرى الأمور على وضعٍ آخر؛ فهو يصرُّ على أن يكون له رأيٌ في محيط البيت والمدرسة والمجتمع! ... وقد جاء هذا الجيل في ظروفٍ عالمية تبرِّر الانقلابات، وفي ظروفٍ قومية تنادي بالحرية، واجدًا من الجيل السابق الذي يحتضنه مؤازِرًا لنزعته ومشجِّعًا؛ لأنَّ هذا الجيل السابق لم يكُن إلا جيلُ الثورة المصرية! ... على أنَّ أبناءنا وقد ظفروا بحقِّ إبداء الرأي في كلِّ شيء، لم يقِفُوا عند هذا الحدِّ، ما من شابٍّ يَقبَل منك الآن نُصحًا، أو يلقاك اليوم فتأنس منه توقيرًا لسنِّك، أو احترامًا لجيلك! ... إنه يخاطبك مخاطبةَ القرينِ للقرين، مهما يكُن الفارقُ بينكما في المكانة والسنِّ، وما من شابٍّ يقنع اليوم بأن يكون له في شئُون أُسرته رأيٌ، وفي مذاهب السياسة رأيٌ، وفي برامج دراسته رأيٌ، وفي أساتذته رأيٌ! ... إنَّ مجرَّد إبداء الرأي أصبح لا يكفيه!

جُموح الشباب، وبلبلةُ الأفكار، وزلزلةُ القيم، وهزَّات الأحداث العالمية، وسرعة التطورات الاجتماعية؛ كلُّ هذا جعل الجيل الحديث يشبُّ على عدم احترام القديم الثابت المستقرِّ من النُّظم والأفكار والقِيَم والأشخاص! ... وبانهيار هذا الجدار انطلق الشباب يهيم في كلِّ وادٍ بلا ضابطٍ ولا رابط! ... وتولَّدت عنده بذلك عقيدةٌ راسخةٌ هي أنَّه ليس في البلاد رأيٌ غير رأيه هو الذي تستقيم به الأمور ... وأنَّ من حقِّه أن يفرض هذا الرأي فرضًا على آبائه وأساتذته وقادته، كلما استطاع إلى ذلك سبيلًا!

* * *

في الصورتَين إذن انفصالٌ بين الأجيال! ... في الماضي كان آباؤنا يفرضون علينا إرادتهم. وفي الحاضر، نرى أبناءنا يريدون فرض إرادتهم علينا! ... أتُرانا نحن الجيل الذي بلا إرادة ... أعطيناها لآبائنا تبجيلًا، ولأبنائنا تشجيعًا؟!

تصادُم الأجيال

كلما حدَثَ في مجتمع انفصالٌ بين الأجيال، رأى كلُّ جيلٍ أنَّ هذا المجتمع غريبٌ عليه، وأنه بريء منه، لا يدري كيف جاء، ولا كيف تكوَّن، ولا يعرف مَن المسئُول عنه.

جاءتْني رسالتان تُصوِّران هذه النظرة إلى المجتمع:

الأُولى، تمثِّل رأي الجيل السابق، هذا نصها:

«إنَّ جيلنا كان له من الملاهي «كازينو دي باري»، وفتيات «أوركسترا كافيه إجبسيان» للطبقة المتفرنجة. وقهوتان للرقص والغناء في «وجه البركة» ... أمَّا اليوم فقَدْ أصبح من مستلزمات الطبقة المتوسطة وجود «البار» الأمريكاني في المساكن الخاصة ... وأصبح من حقِّ جاري أن يُثير أعصابي بمكرفون ... وأصبح المخنَّثون يمشون متشابكين خمسةً خمسةً على الأفاريز! ... وأصبحت الأوضاع مقلوبة! ... القانون يَهاب الإجرام، والأبُ يخشى ثورةَ الابن، الذي رضَعَ من ثدي الحريَّة الفاجرة! ... أمَّا في غير مصر فإنَّ القانون الرقيب على المجتمع، قد أجبر يومًا ممثِّلةً مصريةً كبيرة، كانت تضع ساقًا على ساق في ترام «جنوا» أن تُنزل ساقها، فثارتْ واعتبرتْ هذا الإجبار اعتداءً على الحرية، ولكنَّها اضطرتْ آخرَ الأمر أن تلتزم حدودَ المجتمع الذي تعيش فيه، فأنزلتْ ساقها على مضض.»

أمَّا الجيل الجديد فتمثِّله رسالةٌ، هذا نصُّها:

«إنني — كأحد أبناء الجيل الجديد — أقول: إنَّه جيلٌ يريد أن يصِلَ إلى إدراك معنى الحياة، وإلى بلوغ أقصى ما يمكن من المعرفة والتقدُّم والرُّقي! ... على الرغم ممَّا يرى في تصرُّفاته من تهوُّر واندفاع، لا يقِفُهما عقلٌ، ولا يحدُّ منهما إدراك، حتى صار الناس يُوجسون خِيفة من أعماله، ويَرَون فيه خطرًا عليه وعلى المجتمع! ... وما من شكٍّ في أنَّ للجيل الجديد أخطاءً، ولكنْ على مَن تقع التَّبِعة؟ ... أليس المسئُول هو الجيل الذي سبقنا؟ ... إنه لم يعرف كيف يقود الجيل إلى الشاطئ الأمين ... لقد أخافه وأرهبه هذا التطوُّر المفاجِئ في التفكير الإنساني! ... فترك له الحبل على الغارب؟ ... أهو قد حَارَ بين أن يُقدِم معه، أو يُحجِم عن مجاراته؟! ... ومن هنا ظهَرَ تردُّده وضَعفه وتخاذُله ... أو أنه قد تجاهل، أو تغافل عمَّا تطوَّرت إليه الحياة العامة؛ فأراد أن يعود به القهقرى، وكانت النتيجة في كلِّ الأحوال أنْ عَصَى؛ لأنَّ الحياة التي نعيشها في هذا العالم الحاضر لا تسمح لحيٍّ أن يمشي إلى وراء، وإلَّا داستْه العجلات السائرة في موكب الحضارة! ... إنما الخلاف هو في اختلاف طبيعة الجيلَين: أحدهما يريد التمهل، والآخَر يريد القفز! ... وليس هذا بجديد! ... هكذا كان الآباء والأبناء في كلِّ زمانٍ ومكان، ولكنَّ الجديد في عصرنا الحاضر — عصر الثورات والانقلابات — هو أنَّ الخلاف في الطبيعة والنظرة قد انقلب هو الآخَر إلى ثورة، ثورة اتخذتْ لها شتَّى المظاهر: في البيت، والمدرسة والعمل والمجتمع! ... ولم يعُد من السهل أن نفرِّق في دُخانها بين حدود النظام والحرية، والحقِّ والواجب! ... وبهذا اختلطَت الأقدار، وضاعت معالمُ القِيم، وفسدَت العلاقة بين الأجيال، وانفصلتْ حلقاتها! ... وانعدم التعاون بينها، وانتهى الأمر إلى ما نرى، من وقوفِ كلِّ جيل موقفَ المُرتاب من الجيلِ الآخَر!»

كلُّ الأزمة إذن هي في هذا الانفصال بين الأجيال!

خرج البنون على آبائهم، وخرج التابعون على قادتهم!

في النظرتَين إذن إنكارٌ لحالة المجتمع، واعترافٌ بأنه قائم على فساد ... وليس المهم إلقاء التَّبِعات، وقذْف الاتهامات؛ إنما المهم هو البحث في العلة، وعلاج الداء! ... وما من شكٍّ في أن الأفكار تتطور اليوم بسرعةٍ ظاهرة، والحياة تتجدَّد، والمجتمع يتابع كلَّ ذلك على الرغم منه كورقةٍ فوق تيارٍ جارٍ! ... وما أظنُّ كثيرين من الجيل السابق يخطر لهم أن يوقفوا عجلة الزمان، أو يُرجِعوا عقارب الساعات إلى الوراء؛ فهُمْ متهمُّون أحيانًا بأنهم قد جرفوا في التيار جرفًا، دون أن ينظموا له الجسور والسدود. فالتجديد الشامل في نواحي المجتمع، لم يتمَّ شيءٌ منه في واقع الأمر إلا بإيحاءٍ، أو رضًا، أو تساهُل من الجيل السابق! ... ولكنَّ الجيل الجديد يعيش في عصر التغيُّرات الخاطفة، والتطوُّرات السريعة، والاختراعات المفاجِئة، فأصبح لذلك أقلَّ من الجيلِ الذي سبقه صبرًا وجلَدًا، وأقوى منه رغبةً في كلِّ تغيير، وأعنفَ منه ثورةً على كلِّ ثابتٍ مستقر!

ليس الخلاف بين الجيلين في الحقيقة على مبدأ التطور والتجديد، فالكلُّ مسلِّم بضرورة الانحناء لدواعي التجديد والتطور، ولكنَّ الخلاف الحقيقي في ذلك التصادم — في ضياع الاحترام والثقة — في السير، لا بروح التعاون، بل بروح التحدِّي!

تجاهُل الأجيال

إنَّ انقطاع الصلة بين الأجيال يحدُث أيضًا من ذلك الجهل بطبيعة كلِّ جيل، أو التجاهل لمَا تتطلَّبه تلك الطبيعة! ... وها هي ذي رسالةٌ، تصوِّر هذا الجهل، أو التجاهل بين جيلَين:

«يمنعني والدي من قراءة المجلات والجرائد، على اختلاف أنواعها، ولا يقبل مناقشةً في فائدةِ القراءة والاطِّلاع، وكلما أبصر في يدي مجلةٍ مزَّقها! ... وهو ينهاني عن مصادقة أيِّ شاب، حتى إن كان مثقفًا، وهو يرتاب في حركاتي وسكناتي، ويخاف عليَّ! ... وهو يريد أن أعيش كعابدٍ في صومعة؛ لا يراني الناس ولا أراهم! ... إني مشغوفٌ بالقراءة، فماذا أصنع لأُرضي هوايتي وأُرضي في عين الوقت والدي الذي أكِنُّ له كلَّ الاحترام؟»

هذا والدٌ يريد أن يربِّي ولده كما يربي ذلك النوع من الزهر في بيوت الزجاج! ... وأنا لست من علماء التربية للبشر، أو للزهر حتى أبتُّ في هذا الأمر ... ولكنِّي أعتقد أنَّ كلَّ كائن إنساني أو نباتي لا يتعرَّض للشمس والهواء والريح والغبار ينشأ رقيقَ التكوين، ضعيفَ البنيان، يحتاج إلى دثارٍ من العناية ليحيا، وإلى جدران من الحيطة ليعيش، ويكفي أن تُحدِث المصادفة في تلك الدروع ثغرةً ذاتَ يوم، لينهار ذلك الكيان عند اللمسة الأُولى! ... كلَّا أيها الوالد الخائف! ... ليس هذا هو السبيل، حطِّم بيت الزجاج وأخرجْ زهرتك وعرِّضها برفقٍ للشمس والهواء! ... دعْ ولدكَ يقرأ ودعْهُ يُصادِق ودعْه يعيش ربيعه!

لا تخشَ لونَ القراءة التي يشغف به ابنك في هذه السنِّ المبكِّرة. إنَّ الطبيعة أعقل منك أيها الوالد، إنها هي التي تغرس الميول في النفوس، وتلوِّنها على حسب الأسنان

والأعمار، كما تلوِّن أوراقَ الأشجار!

ففي الشباب يُورق الخيال والشعور والعاطفة! ... وفي الكهولة يورق العقل والحكمة والتجارب! ... ومن الخطأ أن يتحدَّى والدٌ الطبيعةَ، وأنْ يتغلَّب بغرسه على غرسها، وأن يتطلَّب في ربيع العمرِ شجرًا قائمَ الجذع، صُلبَ العُود، تحت عَصْف الريح! ... ولكنها فيما يظهر قصةُ كلِّ والد؛ إنَّه يحكم على ولده بمزاجه، ويقيس درجة حرارته «بترمومتره»، وكأنَّه لا يستطيع له فهمًا — كما لا يستطيع الشتاء أن يفهم الربيع، فهو يسخر من زهره الأبيض الطاهر، فوق الغصون اللينة المخضرَّة، ويهزأ من طيره الصادح ومن ليله المقمر، ومن نسيمه المعطر، ومن كل تلك الرِّقة التي تُملأ بها الدنيا — ذلك الفصل الربيعي الرقيق! ... إنها في نظر الشتاء الصارم ضعف؛ لأنه فصل العنف تتصارع فيه العناصر، وتتعارك القوى! ... إنه الحياة في كفاحها الأكبر.

أنا أيضًا وقفتُ هذا الموقف من والدي — رحمه الله — وأنا في الثانية عشرة من عمري! ... كنتُ أرهب أيام الجُمَع؛ لأنها الأيام التي يفرغ فيها لي، يناقشني فيما أقرأ، وكان يتخير لي هو نوع الكتب التي يجب في عُرفه أن أقرأها! ... وكان أخفَّها وطأةً كتابٌ يحوي «المعلقات السبع»، ضُربت بسببه أوجعَ الضرب؛ فقد كان والدي لا يكتفي مني بالحفظ عن ظَهْر قَلْب، بل يريد منِّي أن أشرح له أبيات ذلك الشعر الجاهلي في تلك السنِّ! ... وكنت إذا عجزتُ عجب لجهلي وحمقي، ثم استشاط غيظًا منِّي — مدفوعًا ولا ريب بالخشية على مستقبلي الضائع — وإذا يده تتناول وجهي بالصفع الثقيل، فلا تتركني حتى يسيل الدم من أنفي، وهو يصيح بي: يا جاهل! يا غبي! ... أيوجد أسهلُ من هذا البيت لزُهير بن أبي سُلمى! ... هذا السهل الممتنع يا أحمق!

ومَن لم يُصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ يُضرَّسْ بأنيابٍ ... ويُوطَأ بمنسِمِ

ثم يهزُّ رأسه إعجابًا بالحكمة التي ينطوي عليها هذا الشِّعر!

حقًّا هذا شِعرٌ خليقٌ أن يقدِّره والدي الذي حنَّكه الدهر، وعرف من تجاريبه حقيقةَ كلِّ كلمةٍ في هذا البيت، ولكنَّ الذي يُدهشني الآن هو: كيف غاب عن والدي وقتئذٍ أنَّ مثل هذا البيت لا يمكن أن يتصوَّر حقيقته ذهنُ غلامٍ في الثانية عشرة؟

أتُرى كان المقصود أن أشرح البيت شرحًا محفوظًا، كما أُلقيه إلقاءً محفوظًا؟! ... وما قيمةُ ذلك؟ ... إنَّ هذا لا يرفعني عن الببغاء إلا مرتبةً بسيطة! ... ولكنَّ المقصود

— فيما أعتقد — أن يشرح الإنسان المعاني شرحًا محسوسًا، بكلِّ شعوره، وكلِّ إدراكه، وكلِّ إحاطته الشخصية لمَا يشرح ويفسِّر! ... في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يُطلب إلى غلامٍ أو شابٍّ أن يفسِّر إلا ما تستطيع تجاريبُ سنِّه أن تُلمَّ به من مدارك وإحساسات!

من أجل ذلك يجب على الوالد والمدرسة تجنيب الغلام أو الشاب ذلك النوع من الكذب على نفسه وعلى غيره؛ بتلقينه تفسيرات «موضوعة» لأشياءَ لا تُدركها سنُّه!

لهذا أيضًا يحسُن بالوالد والمدرسة تمكين الصبيِّ أو الشابِّ من قراءة ما يُناسب سنَّه من ألوان القراءات!

ولا تقلق أيها الوالد، ولا تظنَّ ابنك — وهو اليوم غارقٌ في هذه المطالعات التافهة اليسيرة — سيظلُّ سائرًا منساقًا في تيارها إلى آخر العمر!

إنَّ تيار الحياة هو الذي يغيِّر لون المطالعات، وأنت نفسك أيها الوالد الذي تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة والاقتصاد، أو تتغنى بالتاريخ أو بالأدب الرفيع أو بعلم النفس أو بعلم الرياضة، كنت في صباك مشغوفًا بقصص «روكامبول» أو «أبي زيد الهلالي»! ... ولكنَّك لا تذكُر ذلك العهد؛ كأغلب الآباء! ... ويخيَّل إليك أنك لم تقرأ قصةً قَط؛ لأنَّ حياتك اليوم تدفعك في مجرًى بعيدٍ عن حياة الخيال، وبدا لك عقلك، وكأنه لم يعُد يُطيق هضْمَ القصص!

أيها الوالد! ... اترك ولدك لسنِّه! وافهم طبيعة جيله!

حرمان الأبناء

كمْ سعدنا في طفولتنا الجميلة بشهر «رمضان»، وكَمْ شقينا أيضًا! ... مَن ذا الذي لا يذكُر خفقةَ قلبه الصغير، في صباه، وهو أمام حانوت «السمكري»، يقلِّب أنظاره الشائعة، وأبصاره الزائغة، في مختلف «الفوانيس» بزجاجها ذي الألوان؟ ... ما أبهجَ ذلك الفانوس الأصفر الأخضر الأحمر المعلَّق في القمَّة! ... ولكنَّ ثَمَنه، ولا شك، باهظ! ... تُرى هل يرضى الأهل ببذل هذه التضحية من أجله؟ إنه على كلِّ حال لن يُكلِّفهم شططًا، ولكنه سيُفعِم قلبه بسرور لن يقدِّر الكبار مداه أبدًا! ... ما أقسى الكبار أحيانًا! ... إنهم قد يضِنُّون ببضعة دراهمَ لن تُغنيهم، هي الفرق بين لعبةٍ ولعبة! ... ولكنَّها — في الواقع — هي الفرق بين سعادةٍ وسعادة! ... ما أشدَّ نسيان الكبار! ... لقد كانوا كلُّهم صغارًا في يوم من الأيام! ... لماذا لا يذكُرون في ذلك العالم السحري العجيب، الذي تتفتَّح للأطفال أبوابه الذهبية فجأةً كلما أرادوا الحصول على شيءٍ من تلك الأشياء التي يحلمون بها؟! ... عالم من هناءٍ سماوي، لن يُتاح لأحدٍ غيرهم أن يعيش فيه بهذا الثَّمَن الزهيد بعد أن يُجاوز أعمارهم! ... لو تذكَّر الكبارُ ذلك العالم الذي أُغلقتْ دونهم أبوابه بخروجهم من طور الطفولة لمَّا ضنُّوا على أولادهم بشيء! ... فهم الآن وفي أيديهم القدرة، وفي جيوبهم المال، لن يستطيعوا فتْحَ كوَّة في ذلك العالم مهما يشتروها بثروة الدهر وذخر العمر ... ما أعجبَ تلك المعجزةَ التي يسمُّونها الطفولة! ... فيها تستطيع أن تدخل الفردوس الذي لن تدخله بعد ذلك أبدًا بقُروش معدودات! ... سلْ كلَّ صاحب ملايين في أمَّة من الأمم: هل في مقدورك أن تشتري اليوم بملاييننك لحظةَ سعادة؛ كتلك التي تشتريها في صِباك بدِرهَم أو درهمَين؟

أرأيتم يا ملوك المال؟ ... تلك ملاييننكم قد تضاءلت أمام ثروة طفل! ... وذلك ذهبكم قد تحوَّل إلى تراب أمام كنوز الطفولة!

هنالك، مع ذلك، مشكلةٌ تحتاج إلى تفكيرٍ وتدبُّر:

إذا كانت لك القدرة على إشباع رغبات طفلك وتحقيق أحلامه فهل تفعل أو تتمهَّل؟ ... هل من مصلحة الطفل أن تَروي كلَّ رغبته، أو أن تُبقي فيه بعضَ ظمأٍ لم ينطفِئ؟

أقول ذلك لأني لم أظفر في طفولتي بكلِّ ما كنتُ أتوق إليه من لعبٍ، وأصبو إليه من أشياء ... فكنتُ أخلقها لنفسي بخيال مشبوب، وكان من أقراني وجيراني من يملك لعبًا نفيسةً عجيبةً تملأ حُجرته، وتملؤني دهشةٌ، أقف بينها مشدوها، وأحملق فيها معجبًا، وألمسها مكبرًا! ... وصاحبها الصغير يعبث فيها بيده الصغيرة محطمًا ومحقرًا! ... كنت ولا ريب أُدرك قيمتها أكثر منه، وأرى فيها أشياءَ باهرةً لا تراها عيناه؛ وكأنَّ كلَّ لولب فيها، أو لغز أو مفتاح؛ يحرِّك كلَّ مخيِّلتي، ويهزُّ كلَّ واعيتي! ... كلُّ ذلك؛ لأني لا أملكها، ولا أستطيع أن أحصل عليها!

تُرى، يا علماءَ التربية، ما الواجب أن يُتبع في تنشئة الطفل؟ ... تلبية ندائه أو صمُّ الأذن أحيانًا عن مطالبه؟ الأذن أحيانًا عن مطالبه؟ ... منحه لذة الامتلاك، أو تعريفه بمرارة الحرمان؟

إذا جاء «رمضان»، وتطلَّع إلى الفانوس المُزركَش المُبرقَش في قمَّة الدُّكان، فهل تترك خياله معلقًا به، وأحلامه تهتزُّ معه، وتبتاع له الفانوس الآخر، أو تأتي له بالأول، تُضيء زجاجه وشمعته، وتُطفئ خيال الطفل ولوعته؟!

صُنع الأجيال

يؤكِّد عالِمٌ «بيولوجي» أمريكي أنه — في خلال خمسة أعوام — سيصبح في مقدور كلِّ زوجين أن يختارا نوع المولود الذي يريدانه ... فمَن شاء مولودًا ذكَرًا جاء له ذكر، ومن شاء الأنثى جاءت له الأنثى!

إنَّ العلم يريد أن يضع في يد الإنسان مفتاحًا رهيبًا، من مفاتيح الطبيعة الحكيمة! ... العلم! ... هذا النهم الذي يسكن رأس الإنسان، ويدفعه إلى نَيل ما لا ينبغي له أن يُنال! ... لكأنِّي بالطبيعة — هذه الأم الرحيمة — وقد لمحتْ يدَ طفلها الإنسان، تمتدُّ خلسةً إلى وسائدها؛ لتجذب من تحتها المفتاح، تهبُّ قائلةً لنفسها مرتابةً قلِقة: أيها الأحمق! ... تريد أن تصرف كلَّ أمورك بيدك؟ ... أخشى ألَّا تكون على ذلك قديرًا، ولا به جديرًا! ... إني أدبِّر لك شأنك، متحلِّلةً من كلِّ نزواتك، مرتفعةً عن كل صغائرك ... أرى مصيرك لا في نطاقه الفردي المحدود، بل في علاقته بمصاير غيرك من الأحياء! ... إنك ستندم على هذا النَّزق يومًا!

وكأني بالإنسان يقول للطبيعة بلسان العلم: لم أعُد طفلًا، ما دمتُ قد عثرت على مفتاحكِ؛ فإني أهلٌ لأخذه واستخدامه! ... فتهمس الطبيعة: كلُّ الأطفال يقولون ذلك! ... ويمضون بالمفاتيح إلى الخزائن الممنوعة؛ بحثًا عن الحلوى أو المتعة فيُبعثرون ما فيها، ويُلقون الاضطراب في نظامها! ... افعل ما شئتَ، وسنري ما يكون منك!

* * *

ولن يكون غيرُ أمرٍ واحد: ما إنْ يعلم الناسُ أن في الإمكان اختيار نوعِ الولد، دون أن يتكلَّفوا أكثر من جرعة دواء، بقليل من المال، حتى يندفعوا كلُّهم أفواجًا إلى الصيدليات، يطلبون الدواء الذي يُنجب لهم المولود الذَّكر! فما يمضي جيلٌ حتى نرى الدنيا قد زخرت بالذُّكور!

وتظهر عند ذاك مشكلةٌ عالمية: هي البحث عن الأنثى!

وقد تقع المعارك والحروب بين الرجال من أجل المرأة؛ كما وقعت حروب «طروادة» من أجل «هيلينا».

عندئذٍ تنقلب الكفَّة فجأةً، ويندفع الناس من جديد إلى مخازن الأدوية، يطلبون الدواء الآخر الذي ينجب الإناث! ... فلا يمضي جيل، حتى نرى الدنيا قد زخرت بالنساء!

وتظهر مشكلة البحث عن الرَّجُل — فيعود الاندفاع إلى المخازن والصيدليات طلبًا له ... وهكذا دَوالَيك — حتى يحدُث نوعٌ من التوازُن بعد أجيال!

ذلك أنَّ هذا الطفل الإنساني الكبير غيرُ قديرٍ على أن يقرَّ التوازن في شئُونه إلا بثَمنٍ باهظ من الجهد، وبعد زمنٍ طويل ينقضي في الاضطراب بين النقائض، والترنُّح بين الأضداد!

* * *

هذا فرضٌ قائم على حُسن الظنِّ بالإنسان، وعلى أنه يستطيع بنفسه — آخِر الأمر — أن يسيطر على نزعاته ونزواته ... وأنه في إمكانه أن يحلَّ محلَّ «الطبيعة» في تنظيم ملكاته ... ولكنَّ هنالك فرضًا آخر يقوم على عجزه وإخفاقه! ... هنا لا نرى مناصًا من تدخُّل «الطبيعة»! ... هذه الأم اليقِظة الصابرة، لا يمكن أن يبلغ بها التغاضي والتسامح حدَّ الإهمال! فهي ما تكاد تلمح العبث من طفلها، قد انتهى إلى الحدِّ الذي يُفسد النواميس، حتى تنهض مسرعةً إليه، تُمسك بزمام الأمر بيدَيها؛ لتقرَّ النظام في نصابه بطرائقها، وتعيد التوازُن إلى حاله بأساليبها!

فإذا كان عدد الذكور قد طغى طغيانًا لا سبيل إلى كسر شِرَّته؛ أيقظَت «الطبيعة» الفتن، وأقامت الحروب، فحصدتْ بنيرانها ما لا بد أن يُحصد من هذا المحصول الفائض! وإذا كان تعدادُ الإناث هو الغالب، أشاعت الإباحية، والأوبئة، والثورات الاجتماعية؛ فأخمدت بموجاتها ما لا بد أن يُخمد من هذا الفوران الزائد!

وعند ذلك يتمُّ لها النصر، وتقنع من الإنسان بهذا الدرس، فلا تريد منه إلا أن يشعُر بغروره، ويعترف بنَزَقه، ويسمع همْسَها وهي تحنو عليه باسمةً، غافرةً، مُشفِقة: أشبعتَ لعبًا؟! ... ألَا يحسُن بك الآن يا بنيَّ أن تدَعَني أتولَّى أمرك؟!

أجيال الطبيعة

يقول المفكِّر الصيني «يوتانج»: إنَّ من الناس مَن يرفض أن ينتج ذريَّة! فهل تستطيع الأشجار أو الأزهار أن ترفض إنتاج البذور التي تكفُل استمرار البقاءِ لنوعها؟ ... إنَّ مشكلة العصر الحاضر هي أنَّ كثيرًا من الناس لا يتزوَّجون، وأنَّ كثيرًا ممَّن تزوَّجوا يرفضون إنتاج الذريَّة لأسبابٍ شتَّى: كارتفاع مستوى المعيشة، وازدياد تكاليف الحياة، ومشقة الكدح في سبيل الرزق! ... لكنْ ما من سببٍ من الأسباب، ينبغي — في نَظَره — أن يحول دون قيامِ البشرية بواجبها الطبيعي الذي تقوم به الشجرة والزهرة!

هذا قولٌ حقٌّ! ... لكنَّ هناك فرقًا في رأيي بين الشجرة أو الزهرة، وبين الإنسان! ... إنَّ الشجرة لا تفكِّر في معارضة القوانين الطبيعية ... إنَّها لا تنسى أبدًا أنَّها جزءٌ من الطبيعة ذاتها، وأنَّها عندما تُنتج البذور تترك للحياة مهمَّة فرزِ الصالح من الطالح ولا تتعجَّل النتائج، وتَدَع للزمن حرية العمل، يُنضج من الأنواع ما يُنضِج، ويُميت منها ما يُميت، ويُضحِّي بمئات الآلاف، أو آلاف الملايين؛ ليُخرج فصيلةً ممتازة رائعة كاملة بعد حين!

أمَّا الإنسان فأمره مختلف ... إنه حيوانٌ يفكِّر أو نباتٌ يعقل ... وعملُ العقل والتفكير هو استخراج مبادئ واستنباط قوانين ... وهذه القوانين والمبادئ كثيرًا ما تُعارض قوانين الطبيعة ... ذلك أنَّ الإنسان العاقل يضع مبادئه في نطاق زمنه المحدود ... ولكنَّ الطبيعة تضع مبادئها في نطاق زمنها غير المحدود ... ومن هنا ينبع سوء التفاهم بين الطبيعة والإنسان في أغلب الأحيان؛ فأكثر الذين لا يتزوَّجون قد اتَّخذوا هذا القرار، بناءً على مبدأ من مبادئ العقل الذي يُزيِّن لهم الحرية الفرديةِ، ويجعلها في صورةٍ مغرِية من صُور السعادة الإنسانية! ... هذا الرَّجلُ الفردُ المحلِّق كالعصفور — بغير عشٍّ في كلِّ الأجواء — لا يخشى الغد، ويتحدَّى الأنواء! ... ما أسعده في وحدته وراحة باله وعدم مسئوليته! ويظلُّ هذا الرَّجُل في الحياة يصفق

بجناحَيه لا يُظلَ بهما أحدًا ... إلى أن يموت بردًا بغير عشَ، أو يمضي راضيًا بغير ندم! ... وهكذا ينتصر العقل على الطبيعة!

وإمَّا أن يشعُر العصفور أنَّ التحليق في الهواء لا يمنحه الحرية؛ بل يمنحه التَّيَهان، وأنَّ سعادته ليست في نشر الجناح على الهواء بل على بيتٍ وقرين! ... عندئذٍ تنتصر الطبيعة على العقل، ويتزوج الرَّجُل، غير أنَّ العقل لا يتركه وشأنه؛ بل يعود إليه ليضع له المبادئ، ويسنَّ له القوانين، ويقول له: إيرادك صغير، فلا تُنجب أو أنجبْ طفلًا! ... أو إيرادك متوسط؛ فأنجبْ طفلَين! ... ويُصغي الرَّجُل إلى قوانين عقله، ولا يُصغي إلى قوانين الطبيعة!

قانون عقله يريد وصْلَ الإيراد بالذريَّة، وقانون الطبيعة لا يرى صلةً بين الإيراد وبين الذريَّة ... العقل الإنساني المحدود يريد أن يحبس نتائجَ النسل الآدمي في نطاق الزمن الآدمي القصير، وفي حدود التكاليف المالية والمعاشية!

وعقل الطبيعة — غير المحدود — لا ينتظر نتائج هذا النسل إلا بعد أجيالٍ تتعاقب فيها الدول وتتغيَّر النُّظم!

وهنا السرُّ في أنَّ الإنسان الفطري يُنتج من الذريَّة كثيرًا! ... والإنسان المتعلِّم يُنتج منها قليلًا! ... ذلك أنَّ الإنسان الفطري أكثر مقاومة لعقله واندماجًا في الطبيعة وخضوعًا لقوانينها، ولكنَّ الإنسان المتعلِّم أكثر مقاومةً للطبيعة وخضوعًا لعقله!

الإنسان الفطري هو وحده الذي ينطبق عليه قول المفكِّر الصيني! ... وهو وحده الذي مثله مثل الشجرة والزهرة، يُنتج وينسل بلا تفكير، وعلى الطبيعة أن تفرز إنتاجه الصالح من الطالح، وتُبقي القوي وتُميت الضعيف، وهو يتقبَّل حُكْمها باستسلامٍ وإذعان!

أمَّا الإنسان المتعلِّم فلا يقبل حُكْم الطبيعة في ذريَّته! ... إنه هو الذي يريد أن يقرِّر بنفسه مصايرها، ويوجِّهها في الحياة تبعًا لبرنامج يضعه بعِلمه، ويرسمه بعقله!

إنَّها الحرب إذن بين الإنسان المتعلِّم المفكِّر، وبين الطبيعة!

وما دامت الحضارة تقلب كلَّ إنسان إلى متعلِّم مفكِّر؛ فلا بد أن تتَّسع هُوة الخلاف بين الطبيعة والإنسان إلى حدٍّ نرى فيه النسل يومًا يكثُر أو يقلُّ تبعًا لبرنامج رسمي تضعه الدولة وتطبقه على الأفراد!

المخلص من كلّ ذلك، الحكمة ... فإذا أعطي الإنسان الحكمة؛ فإنه يمسك بالميزان الذي يكفل له التوفيق بين إرادته وإرادة الطبيعة.

تنوُّع الأجيال

في سورة «هود» من القرآن الكريم آيةٌ، قلَّ مَن فَطنَ إلى مراميها البعيدة، تلك هي:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨).

مهما يكُن من أمر التفسيرات التي شُرحت بها هذه الآية، فإنه يبدو لي أنَّ في جوفها وميضًا ينمُّ أحيانًا عن أسلوب الله في خلق الكون ... فذلك الاختلاف بين الأجرام في الأحجام هو سرُّ تجاذُبها وتماسُكها وتعاونها. ولو أنَّ الله جعَلَ الأجرام حجمًا واحدًا، وشبهًا واحدًا في كلِّ العناصر والأوزان والصفات؛ لانفرط عِقدها، وانحلَّ رباطها ... أمَّا في مجال أرضنا وسكَّانها من الآدميين؛ فإن قانون الاختلاف له مثل هذه الضرورة واللزوم! ... ولقد قرأتُ أخيرًا للمفكِّر الإنجليزي «جون هادهام» فخيِّل إليَّ أنَّه يُكتب بوحي من تلك الآية القرآنية هذه السطور: «لو أنَّ كلَّ بلدٍ كان له من الهيئة ومن الموادِّ الخام ما لسائر البلاد؛ لكان كلُّ بلدٍ يستطيع الحياة مستقلًّا تمام الاستقلال عن جيرانه، ولكنَّ الله نَظمَ خريطة الدنيا على نحوٍ يجعل كلَّ بلدٍ في حاجة كبيرةٍ أو صغيرةٍ إلى كلِّ بلد!» ... وهذا القول يصدق أيضًا على الشعوب، فكلُّ شعب قد جعلت فيه مزيَّة يستطيع بها أن يُضيف شيئًا إلى مجموع الشعوب، وكلُّ شعب مدين للشعوب الأخرى بشيء يعوزه في إنتاجه أو ينقصه في تركيبه!

وما يُقال في شعبٍ يُقال في الأفراد الذين يتكوَّن منهم؛ فما من مجتمعٍ صحيحِ البنيان إلا كانت صحَّةُ بنيته ناتجةً من أفراد لا يتشابهون في نوع العمل واتجاه التفكير؛ لأنَّ تلك الصحة إنما قِوامها تلك المساهمة التي يؤدِّيها إلى المجموع كلُّ فردٍ بعمله الخاص، وتجاربه الشخصية، ومزاجه المختلف عن سواه، وطبيعته ونظرته! ... وهل نستطيع أن نتصوَّر قيامَ مجتمع، يتكوَّن من أفرادٍ كلُّهم متشائمون في النظرة، أو كلُّهم متفائلون، وكلُّهم ذوو حرصٍ، أو كلُّهم مهملون؟ ... وكلُّهم شعراء، أو كلُّهم مهندسون، أو كلُّهم خطباء؟!

* * *

وإذا أردنا أن نكمل الصورة، فلنهبط إلى الأعضاء في جسم الفرد! فالصحة في جسم الفرد قِوامها أيضًا ذلك الاختلاف في وظائف الأعضاء! ... فالرأس يفكِّر، والقلب يشعُر، واللسان ينطق، والأذن تسمع، والقَدَم تسير! ... وإنَّ هذه الصحة لتنهار يوم نرى كلَّ هذه الأعضاء تترك وظائفها المختلفة، وتتَّجه كلُّها إلى وظيفةٍ واحدةٍ متشابهةٍ للجميع، وهي التفكير! ... نعم، ماذا يكون حال الجسم لو تمرَّد القلب، واللسان، والأذن، والقَدَم وقالت كلُّها: لن نشعُر، ولن ننطق، ولن نسمع، ولن نسير! ... نريد كلُّنا أن نكون مثل الرأس، فلا نصنع شيئًا سوى أن نفكِّر؟! ... معنى ذلك ولا ريب هو شللُ الجسم كلِّه وسقوطه في مكانه، لا يتحرك، ولا ينطق ولا يشعُر، ولن يُغنيه تفكيره شيئًا!

أسلوب الله في خلقه، يبدو إذن من ذلك الاختلاف: في الصفات، والهيئات، والسمات! ... هنا سِر التناسُق في الخليقة؛ أيْ سِر تضامنها: فأعضاء الجسم متضامِنة في العمل؛ لأنها مختلفة في الوظيفة، ولو أنها تشابهتْ في الوظيفة لمَا تضامنتْ فيما بينها، ولاستقلَّ في الحال كلُّ عضوٍ عن كلِّ عضو، وبهذا الاستقلال يتفكَّك الجسم ويتفتَّت الفرد!

* * *

فإذا انتقلنا إلى مجالِ الرأي، وَجَدنا أنَّ اختلاف الآراء في المجتمع البشري ضرورةٌ من ضرورات الطبيعة، أيْ مَظهَر لإرادة الله! ... وهنالك فرقٌ بين الاختلاف في الرأي، والاختلاف في العقلية؛ فقَدْ تتشابه العقلية في شخصَين، ويختلف الرأي بينهما!

والمجتمع السليم يجب أن يقوم على قَدْر من الوحدة والانسجام في عقلية الأمة، وأجيالها ومقوِّمات شخصيتها العامة؛ دون أن يؤثِّر ذلك في اختلاف الآراء فيها! ... فلا ينبغي أن يشطَّ بنا غرورنا الإنساني؛ فنعتقد أنَّ ما يجول في رأسنا من رأي، يجب أن يسود الناس أجمعين! ... ما من رأيٍ واحد يمكن أن يسود هذه الأرض!

إنَّ العالم اليوم منقسمٌ إلى معسكرَين ورأيَين، كلٌّ منهما يريد أن يمحو الآخر من الوجود محوًا: الرأسمالية في جانب، والشيوعية في جانب. وكلٌّ منها يعدُّ من الذرَّة قنبلة، يُزيل بها خصمه من خريطة الدنيا! ... وقد تقع الحرب الفاصلة بينهما، في يومٍ قريب أو بعيد!

ولكن الذي لن يقع، هو وحدة الرأي في هذا العالم، حتى وإنْ ظفرَ أحدُ الجانبَين بالانتصار الساحق الماحق! ... ذلك أنَّه — في تلك اللحظة عينِها — لا يلبث أن ينقسم هذا الرأي الواحد المُنتصِر إلى آراء تختلف وتشتجر! ... وهكذا دَوالَيك! ... لأنَّ هذا ناموسُ الخالق الأزلي:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨).

مبدأ الأجيال القادمة

الدنيا مركبةٌ زاهيةُ الألوان، مذهَّبةُ الحواشي، مُطهَّمة الخيول، سائقها الشيطان!

هذا السائق اللَّبِق يعرف دائمًا كيف يخاطب الرَّكب! ... إنه لا يجهل حُب الناس للخير، أو التظاهر بحُب الخير ... فهو يتحاشى أن يخاطبهم بلسانه الحقيقي! ... لقد ابتدع لهم لغةً بارعةً برَّاقة، يقطر منها النُّبل والسموُّ!

فهو ينحني بجوار باب مركبته، حتى تكاد جبهته تمسُّ الأرض تواضعًا، ثم يفتح الباب، ويقول للناس: هلمُّوا اصعدوا، أوصلكم إلى أنبل الغايات!

فيصعدون، بعضهم عن إيمان، وبعضهم عن غرض، وبعضهم عن تورُّط!

أمَّا صاحبُ الإيمان فيقول في نفسه: الدنيا بخير! ... وأحمَدُ الله أن أتاح لنا هذا السائق الطيِّب، يذهب بنا إلى ما نؤمن به من غايةٍ شريفة!

وأمَّا صاحبُ الغرض فيقول: ليس يعنيني الجهة التي يذهب بي إليها هذا السائق، ولكنَّ الذي يهمُّني هو أن أصعد إلى جوار هؤلاء الناس المؤمنين الشرفاء!

أمَّا المتورِّط فيقول: لم يكُن في نيتي الركوب، ولكنْ ما دام الناس من حولي يصعدون كلُّهم مع هذا السائق، فما الذي يُبقيني أنا من دون الناس؟!

ويُغلق السائق على الجميع باب المركبة وهو يبتسم ويقفز إلى مكان القيادة، ويُمسك بالأعنَّة، ويُلهب بالسوط ظهور الجياد! ... فإذا المركبة تنطلق كالمجنونة تُسابق الرياح!

* * *

ولا يمضي قليلًا حتى يشعُر الرَّكب برجَّاتٍ عنيفة، تكاد تحطم المركبة، وتُصيبهم بالدُّوار، وتُلقي بعضهم على بعض! ... عند ذاك ينظُرون من النافذة؛ فإذا هم يتبيَّنون

أنَّ السائق قد ترك الطرق السويَّة، وانحرف عن السُّبل المستقيمة، ونزل بالمركبة يخبُّ في السكك الوعِرة، ويخوض في المسالك المُوحِلة!

فيصيح به أصحاب الإيمان مرتاعين: ويلك! ... ما هذا الطريق الذي تخوض بنا فيه؟!

فيلتفت إليهم السائق، قائلًا بخبثٍ مستتر: هو أقصر الطُّرق!

فيقول المؤمنون: ولكنه ليس نظيفًا!

فيجيب السائق: المهمُّ الغاية التي تقصدون إليها! ... ما دامت الغاية نبيلة فلا تنظُروا إلى الطريق!

ويعود إلى سوطه يُلهب به خُيوله؛ فتندفع المركبة في وِجهتها، تاركةً الرَّكب المؤمن في داخلها، ينظُر بعضهم إلى بعض متسائلين: أحقًّا يجدُر بنا أن نسير في هذا الوحل والطين من أجل الوصول إلى غايتنا الشريفة؟!

ويشترك في الحديث غير المؤمنين، من هواةِ التظاهر والمتورِّطين، فيقولون: ما دام هذا هو أقصر الطُّرق للوصول، فما الضَّرر؟

فيصمت أصحاب الإيمان، وقد أسلموا أمرهم إلى الله، ما أسلموه في حقيقة حالهم إلا إلى الشيطان!

* * *

تلك هي مركبة الدنيا من قديم منذ سلَّم فيها الجميع بمبدأ «الغاية تبرِّر الطريقة!»

أخطر مبدأ عرفتْه أجيال البشرية المتعاقبة! ... هذا المبدأ وحده هو المسئول عن كلِّ هذه الكوارث التي حاقتْ بالعالم حتى عامنا هذا جيلًا بعد جيل!

كلُّ ساسةِ العالَم وقادة الشعوب، في الأمس واليوم، وفي الغد أيضًا، ولا ريب، يسيرون على هذا المبدأ. مخدوعين بالوهم أنَّه أقصرُ طريق؛ للوصول إلى غاياتهم التي قد تكون في بعض الأحيان نبيلة، ولكن الذي يحدُث دائمًا هو ما يحدُث لرَكبِ المركبة التي يقودها الشيطان! ... إنهم لا يظفرون إلا بالطريق الموحِل، أمَّا الغاية فلا تظهر لهم أبدًا في الآفاق!

ذلك أنَّ الطريق المُلتوي القذِر، لا يُوصل أبدًا إلى الخير ولا إلى الشرف! ... إنَّ الغاية النبيلة ليست من الضَّعة حتى تقبل أن يوصَل إليها بطريقٍ غير نبيل! ... إنَّ الطريق إلى الشَّرف هو الشَّرف نفسُه، ولا شيء غير ذلك!

والخير هو في ذاته الطريقة والغاية؛ لأنَّه شعاعٌ من أشعة الله، والله تعالى غاية، لا بد أن يكون طريقها نورًا وخيرًا!

فلو اتَّفق قادة العالم المجتمعون حول موائدِ السلام، وقادة الشعوب والمجتمع والفكر الباحثون في مستقبل الإنسانية على أن يحطِّموا أولًا مبدأ «الغاية تبرِّر الوسيلة.» لجاءت النتائجُ باهرة! ... فإنَّ مناورات الساسة ستختفي، وأساليب الكذب والمُداراة والنِّفاق والخداع ستزول، ولن يبقى أمام الجميع غير طريقٍ واضحٍ نظيف! ... إذا أوصلنا إلى الخير العام؛ فهو الهدف. وإن لم يوصلْنا إلى إصلاحٍ سريع؛ فحسب العالم أنَّه سار في طريقٍ خالٍ من الشَّر والقذَر! وإذا لم يكُن هذا الطريقَ النظيف هو في ذاته إصلاحًا وخيرًا، فلَن يعرف العالم الإصلاح والخير عن طريق التدمير والشر!

هل لنا أن نأمل، في الأجيال الجديدة، ظهور مبدأٍ جديد، يتَّخذه العالم كلُّه دينًا وعقيدةً ويكون شعاره:

«الغاية النبيلة في الطريق النبيل»؟

شبَحُ جيل

ذهبتُ إلى شارع «بلبور»، ذلك الحي النائي من أحياء «باريس» — حيث كنتُ أُقيم بعد الحرب العالمية الأُولى — فماذا وجدتُ؟ ... وجدتُ الشارع الضيِّق كما كان، ووجدتُ حُجرتي، كما كانت، مفتوحةَ النافذة على الفضاء الواسع، وأعترف أنِّي تأثرتُ، وشعرتُ برجفة؛ فقد خُيِّل إليَّ أنِّي أرى شخصًا في النافذة، شخصًا أعرفه، شابًّا نحيلَ الجسم، أسودَ الشَّعر، يُرسل البصر إلى الأفق البعيد، كأنما يريد أن يهتك حُجب الغيب؛ ليطالع ما خُط في لوح قدَرِه! ... ولكنَّ القدَر — فيما يبدو — ما كان قد خطَّ حرفًا واحدًا في اللوح! ... إنما وقَفَ مُمسِكًا به ينتظر — ينتظر الرسم الذي خطَّه الشابُّ لحياته! ... نعم، لقد كان ذلك الشابُّ قد وضَعَ لحياته شِبه «خريطة» واضحة المعالم، دقيقةِ التفاصيل! ... كان قد طرَحَ في مصر مهنة المحاماة والقانون؛ ليَمضي في حَمْل القلم، ويقول للناس أشياءَ، يعتقد أنَّها قد تنفعهم! ... وما كان يريد غير ذلك، ولا يطمع من حياته في غير ذلك — فلا الجاه العريض كان يُغريه، ولا مفاتن الحياة كانت تستهويه، ولا الثراء كان يجذبه أو يقنعه أو يُرضيه!

وعندما يضع «إنسان» لحياته خطة، فإنَّ «القدَر» أحيانًا يأخذ وينفذ!

لذلك تقدَّم «القدَر» فيما يظهر، إلى الشابِّ وتسلَّم منه الرَّسم، ونقله إلى لوحه وهو يهمس باسمًا: ما دمتَ أنت «المهندس» الدقيق لبناء حياتك، فلن أكون أنا غير «المقاول» المنفِّذ الأمين!

ولقد برَّ «المقاول» فعلًا بالوعد ... وأتمَّ العمل ... وأقام البناء طبقًا للرسم ... لا أكثر ولا أقلَّ.

* * *

وددتُ لو أستطيع أن أسأل ذلك الشاب الذي تخيَّلتُه في النافذة: أيُعجبك هذا البناء؟!

لم أتلقّ بالطبع جوابَ ذلك الشابِّ! ... ولستُ أدري بماذا كان يُجيب في مثل سنِّه؟ ... ولكنِّي سمعتُ الجواب من أعماق نفسي أنا: لا ... لا يُعجبني.

وهنا ... خيِّل إليَّ أنِّي أسمع «القدَر» يقول بنبرةِ تهكُّم: الذنب ليس ذنبي ... لقد نفَّذتُ ما تسلَّمتُ ... إن كان هناك عيبٌ فهو عيب الرسم!

فقلتُ له في الحال: اطمئنَّ ... ما من أحد يتَّهمك أنت ... ما من شكٍّ في أنَّ المسئُول هو ذلك المهندس «الغشيم»!

فقال مزهوًّا: عندما يترك لي، أنا القدَر، مهمَّة الرَّسم، فإنِّي أفعل المعجزات؟

فقلتُ له: بالتأكيد ... ولكنْ ماذا تقول في أولئك الأغرار الذين يتصدَّون للهندسة ووضع الخرائط، فيحبسون حياتهم داخل رسمٍ خيالي ... لا يستطيعون منه خروجًا أبَدَ الدَّهر؟!

فقال: مهما يكُن خيال الإنسان فهو لن يُطاول خيالي! ... أستطيع أن أدُلَّك على عشرة تعرفهم، ولا شكَّ أنَّهم اليوم من أصحاب الملايين. أحدهم كان حُوذيًّا في عرَبَّة نَقْل، والآخر بائعًا جائلًا من باعة «الخردوات»، والثالث عاملًا في حانوت فواكه ... وهلمَّ جرًّا ... ما من واحدٍ منهم وضَعَ لحياته خطة، أو تخيَّل لمصيره رسمًا! ... تركوا كلُّهم لي أنا مهمَّة الرَّسم، وعهدوا إلي بهندسة بناء حياتهم فصنعتُ لهم ما لم يخطر لأحدٍ منهم على بال!

فقلت له: ماذا صنعتَ لهم؟

– أقمتُ بناء حياتهم، على أعمدةٍ من الذَّهب!

– أعطيتَهم المال؟!

– نعم ... أغرقتُهم في المال!

– نعم! ... أغرقتَهم!

قلتُها هامسًا، وأنا أهزُّ رأسي، تلك الهزَّة الطويلة التي تطوي التهكُّم المستتر!

فقال «القدر»: ماذا تقصد؟ ... ألَمْ أُعطِهم أكثرَ ممَّا كانوا ينتظرون؟

فقلت على الفور: هذا صحيح؛ لأنَّهم ما كانوا ينتظرون من الحياة أكثر من ذلك.

فقال متخابثًا: وماذا في الحياة أكثر من ذلك؟!

فقلتُ باسمًا: ألا تعرف أنت؟!

فقال: أتعرف أنت ضوءًا أشدَّ من وهج الذَّهب؟!

فقلت في الحال: القلوب الصغيرة هي التي تُضاء بالذهب، أمَّا القلوب الكبيرة فلا تستطيع جبال الذهب أن تُضيء أرجاءها وأعماقها!

فقال: أنا الآن إذن في نظَرِك مهندسٌ ومقاوِل من نوعٍ رخيص.

فقلت: أنت مهندسٌ ومقاوِل، اعتاد أن يرسم ويُقيم البيوت الصغيرة!

لقد تبيَّن لي الآن أنَّ البيوت الكبيرة لا يرسمها غير أصحابها!

فقال بخبث: ولماذا شكوتَ الساعةَ إذن من بناء حياتك؟!

فقلتُ مُطرِقًا: لأنَّ الشابَّ الذي وضع الرسم، كان حسَنَ الظنِّ، واسعَ الخيال، لقد خطَّ على صفحة ذهنه بيتًا كبيرًا ... كبيرًا جدًّا، لم أستطع أنا أن أملأه أو أتَّخذ مكاني فيه! ... إني حبيسُ قصرٍ رحب. لم يستطع إيماني، ولا جهدي، ولا قدرتي، أن تَشغَل كلَّ قاعاته وأبهائه.

* * *

قلتُ ذلك وانصرفتُ خارجًا من شارع «بلبور» بعد أن ألقيتُ نظرةً أخيرة على شبَحِ الشابِّ الواقف في النافذة، وهمستُ: وداعًا! ... عفوًا ... لم أستطع أن أفعل أكثر من ذلك! ... لعلَّك أنت الذي بالغتَ في التفاؤل!

ومشيتُ في الطريق الذي كانت تُقام فيه السُّوق كلَّ أسبوع، ويذهب إليها الشابُّ ليحمل مُؤْنته من الأرز والبيض، ويُنفق «الفرنكات» القليلة، التي لا يملك غيرها على مدى الشهر الطويل، ولكنَّه كان سعيدًا؛ لأنَّه ما بالطعام وحده يعيش الإنسان! ... نعم، كان سعيدًا، بالأمل الذي يلمع في الأفق كأنَّه نجم!

ما تغيَّر شيءٌ في ذلك الحيِّ القصيِّ، إلا ذلك النجم الذي اختفى والأفق الذي غشَّاه الضباب!

بين جيلَين

جاءني ذاتَ صباح أديبٌ شابٌّ ... وقدَّم إليَّ روايةً مصرية ألَّفها ونشَرَها في كتاب ... وهو مزهوٌّ فخورٌ مُنتعِش، كشجرةٍ آتتْ ثمارها، فحملتُ كتابه في يدي بعنايةٍ وحنان ... أقرأ العنوان ... ثم شرعتُ أقلِّب بعضَ الصفحات، وإذا حركةٌ بالباب تبلُغ أذنَيَّ؛ فرفعتُ عيني فوجدتُ فتاةً لطيفةَ المَظهَر، أنيقةَ المَلبَس، مُشرِقةَ الوجه، وضَّاحة الجبين، تستأذن وتدخُل وتجلس، قبل أن تمنحني وقتًا لردٍّ أو جوابٍ، ولم تنتظر منِّي كلامًا؛ فَقَد انطلقَتْ هي تقول بلسانٍ فصيح وجَنَانٍ ثابت: إنِّي قارئةٌ ساخطة ثائرة ... جئتُ أوجِّه إليك سؤالًا واحدًا: ماذا تصنع الآن؟ ... مضى العام تلوَ العام، دون أن يَظهَر لك كتابٌ في السُّوق؛ أهي الصحافة التي شغلتْك؟

وأشارت بيدها إلى جوِّ الحياة الصاخبة الذي يُحيط بمكتبي!

* * *

والْتفتُّ إليها لأُجيب ... ولكنَّ الشابَّ سبقني صائحًا بحماسة: أمِنَ الضروري أن يؤلِّف هو وينشُر؟ ... أليس في الدنيا كتبٌ أخرى جديرةٌ بالقراءة تظهر في كلِّ حين؟

فنظرتْ إليه الفتاةُ دهِشةً، ثم نقلتْ بصَرَها إليَّ كالمتسائلة.

فوجدتْني أهزُّ رأسي مُوافقًا مُصادقًا مُؤمنًا ... فعادتْ إلى الشابِّ قائلةً: إنِّي أسأله هو عمَّا يشغله؟!

فقال الشابُّ بقوةٍ وتدفُّق: ما لنا وما له؟ ... فلْيشغلْ نفسه بأيِّ شيءٍ، خيرًا من أن يملأ مائتَين أو ثلاثمائة صفحة، يجعلها قصةً يتقدَّم بها في كلِّ موسم ... حتى يُقال إنَّه دائبٌ على الإنتاج ... ما كان أسهل عليه أن يكرِّر نفسه! ... ويُخرج حلقاتٍ لا تنتهي على نمط «عودة الروح» أو «عصفور من الشرق» أو «الرباط المقدَّس» أو «المسرحيات الاجتماعية والذهنية»، أو يستغلَّ على الأقلِّ كتبَ التاريخ، يستخرج منها

قصصًا لا تَنفَد، وينشر في كلِ موسم ما تشائين ويشاءُ أمثالَكِ، لمجرَّد النشر أو الكسب أو إثبات الوجود أو إظهار النشاط!

– أتراه يستنكف من فعل ذلك؟ ... أو لا يرى له جدوى؟!

اطرحي عليه هذا السؤال ... ها هو ذا أمامكِ!

* * *

فالْتفتتْ إليَّ الفتاة لحظةً، ثم انصرفتْ عنِّي يائسةً إلى الشاب: إنه يهزُّ رأسه دائمًا ... أجِبْ أنت!

– ولماذا أُجيب عنه؟ ... ولماذا تصرِّين على الكلام في شأنه؟ ... إذا أردتِ فإنِّي أحدِّثكِ عن نفسي ... فأنا ولا شكَّ مُلمٌّ بكلِّ تفاصيلها، وأنا أديبٌ ومؤلِّف وروائي و...

– عجبًا! ... ولكنِّي لم أجِئ لأتحدَّث إليك!

– هذا خطأ منكِ أيتها الآنسة! ... لو كنتُ مكانكِ لسألتُ توًّا عمَّن يكون هذا الشابُّ الموهوب الذي تدخَّل في الحديث بهذه الشجاعة، وطلبتُ أن يقدِّم إليَّ ... وأن يحدِّثني عن كتابه الذي ظَهَرَ حديثًا؛ لأطمئن على أنَّ الأدب بخير ... سواءٌ ألَّف صاحب هذه الحُجرة أو لم يؤلِّف ... ونشر كتبًا أو لم ينشر، وعاش أو لم يعِش؟!

– إنَّها حقًّا لشجاعة، بل جُرأة! ... إنك تتدخل على نحوٍ ...

– لا تنظُري إلى «صاحب الحُجرة»! ... إنه لن يُنقذك منِّي، ولن يتكلَّم ... ولن يبتَّ برأيٍ ... إنَّه كما ترَين يُجيبكِ دائمًا بهزِّ رأسه!

– هذا صحيح! ... وأنت، هل تعرفه منذ زمنٍ طويل؟

– أعرفه منذ خمس عشرة سنة ... كنتُ يومئذٍ في الخامسة عشرة وكان أهلي في البيت يتحدَّثون عن «عودة الروح»، ولكنِّي لم أحفل بقراءتها شخصيًّا إلا عندما بلغتُ العشرين ... في ذلك الوقت نشأتُ مع كثيرين من أقراني في الجامعة وشباب جيلي، وشببتُ معهم وهم يلغطون ويتناقشون في الرواية المصرية الطويلة التي شقَّ طريقها ... ويُقسمون بحاسَّة الصِّبا أنَّهم سوف يُمضون في هذا السبيل، ويُخرجون يومًا رواياتٍ مثلها وخيرًا منها عن حياتنا القومية، وقد برَّ بعضُهم بوعده، ونشَرَ قصصًا

على جانبٍ كبير من الطرافة والإتقان! ... وأستطيع أن أؤكد لكِ — أيتها الآنسة — أنِّي أحدُ هؤلاء النابغين! ... أقولها بكلِّ صراحة وبكلِّ تواضُع.

– إني متأكِّدة من صراحتك وتواضُعك، وعلى الرغم من كلِّ شيء، ثقْ أنِّي بدأتُ أهتمُّ بأعمالك ... ولكنْ، ألا تسمح لي قبل ذلك أن أعرف شيئًا قليلًا عن الأمر الذي جئتُ اليومَ من أجله؟!

– تفضَّلي! ... ماذا تريدين أن تعرفي؟

– السؤال بالطبع ليس موجَّهًا إليك ... أردتُ أن أعرف كيف يترك فنَّه العالي، لينزل إلى الكتابة في الصُّحف!

– والله لقد حيَّرتموه! ... إذا ارتفع بفنِّه قُلتُم كيف لا يهبط إلى الناس: يشعُر بشعورهم، ويدرس أحوالهم، ويعرف أنباءهم، ويَعرض شكاواهم، ويدافع عن حقوقهم! ... فإذا فعَلَ عُدتُم فقُلتُم: أين العُزلة التي يكتب فيها لطائفةٍ من الخاصة؟ ... نصيحتي لكِ أيتها الآنسة ألَّا تُلقي هذه الأسئلة السخيفة! ... لا تُؤاخِذيني! إنَّ مَن يكتُب لمئات الألوفٍ، ويستطيع أن ينفعهم بعض النفع ويرتفع بهم بعض الارتفاع، لهو رَجلٌ يؤدِّي خدمةً عامَّة!

– وفنُّه؟!

– ما من فنَّانٍ يستطيع أن يُهمل فنَّه وإن أراد! ... ولعلكِ تخلطين بين الفنِّ وبين إنتاج الكتب في كلِّ موسم! ... تخلطين بين الفنان والمعلِّم، وبين المُنتِجِ والتاجر! ... ماذا تسمِّين ذلك الذي يسكت عندما ينبغي له السكوت ... عامَين أو ثلاثةً أو خمسةً أو عشرةً، يدرس خلالها نفسه من جديد، ويزِنُ تأمُّلاته، ويختزن تجاريبه، ويُراقب أحوال الناس وتطوُّرات المجتمع ... ويراجع أعمالنا القديمة، ويبحث — صامتًا صابرًا — عن طرائقَ للتعبير الفنِّي جديدة! ... إنَّ النشر يا آنستي سهلٌ، ولكنَّ الصعب هو البحث الطويل في الظلام! ... لعلكِ تجِدِينَه الساعةَ مشغولًا بالبحث عن نوعٍ من الفنِّ، لا علاقة له بكل ما عالج من قبل ... «الفنُّ طويل والحياة قصيرة»! ... تلك كلمة «جوته» المشهورة!

إنَّ من يريد أن يُمسك بتلابيب «الفنِّ» ... في حياته المحدودة يجب أن يقفز فوق كلِّ تكرار لا غناء فيه! ... وأن يركض خلف سرابه في كلِّ طريق حتى القبر!

* * *

وسكت الفتى، ونظَرَ إليَّ كأنَّه يُسائلني: هل أصبتُ؟ ... فتلقَّى منِّي الجواب هزَّة من الرأس أيضًا ... أمَّا الفتاة فقَدْ أكبرتْ كلام الشابِّ الأديب، وقالت: اسمح لي أن أُبدي إعجابي بفهمك للفنِّ ... وأن أسألك كتابك! ... فإنِّي مُشوَّقة إلى قراءته ... في أيِّ المكتبات أجِدُه؟

– آسفٌ كلَّ الأسف يا آنسة ... إنِّي لم أجِئ هنا إلا بنسخةٍ واحدة ... ولكنْ إذا أذِنتِ فإنِّي أُرافقكِ الآن إلى أقرب مكتبة، وأقدِّم لكِ نسخةً مُمضاة ... ألديكِ ما يُبقيكِ هنا الساعة؟

– لا داعي لبقائي، نستطيع أن نذهب توًّا!

ونهضتْ في الحال وحيَّتْني تحيةً سريعة، وانصرفتْ ... ونهَضَ الشابُّ لينصرف في أثرها بعد أن حيَّاني هو الآخر تحيةً سريعة، ولم يكَدْ يبلغ العتبة حتى بدا له رأيٌ، فعاد أدراجه إليَّ واقترب منِّي. هامسًا راجيًا: المكتبات الآن مُغلَقة ... أكونُ شاكرًا لو تفضَّلتَ، ورددتَ إليَّ هذه النسخة لأُهديها إليها الآن! ... أمَّا أنت فسأُحضر لك نسختك في وقتٍ آخَر ... إنَّ المستقبل أولى من الماضي!

فما تمالكتُ أن مددتُ إليه يدي بالنسخة ... وأنا أغمز له بعينِي راضيًا باسمًا: صدقتَ! ... وإنِّي لأراه مستقبلًا مُشرِق الوجه، وضَّاح الجبين!

تلاقي الأجيال

لم يكُن من المتصوَّر عندي أن أطرُق موضوعًا كهذا من قريبٍ أو بعيد. ولكنَّ الأمر لاح لي ممكنًا، عندما بدأتُ أنظر إليه من زاويةٍ أخرى ... لم تَعُد المسألة مجرَّد علاقةٍ بين أبٍ وابن؛ لقد خرجتْ من هذا الإطار الضيِّق إلى إطارٍ أوسعَ وصورةٍ أكبر، هي صورةُ العلاقة بين الأجيال في عصرنا الحاضر. وتذكَّرتُ كلامًا نشرتُه في هذا الموضوع منذ أكثر من عشرين عامًا، فنهضتُ أُراجعه، فوجدتُ لدهشتي مقالًا بعنوان: «انفصال الأجيال» قلتُ فيه يومئذٍ إنَّ الجيل الجديد «يصرُّ على أن يكون له رأيٌ في محيط البيت والمدرسة والمجتمع»، وقد جاء هذا الجيل في ظروفٍ عالمية تبرِّر الانقلابات، وفي ظروفٍ قومية تنادي بالحرية واجدًا من الجيل السابق الذي يحتضنه مؤازِرًا لنزعته ومُشجِّعًا؛ لأنَّ هذا الجيل السابق لم يكُن إلا جيلُ الثورة المصرية في عام ١٩١٩م ... على أنَّ أبناءنا لم يقِفُوا عند هذا الحدِّ، فما من شابٍّ يقبل منك الآن نُصحًا ... ما من شابٍّ يقنع اليوم بأن يكون له في شئُون أُسرته رأي، وفي مذاهب السياسة رأي، وفي برامج دراسته رأي، وفي أساتذته رأي. الجيل الجديد يعيش في عصر التغييرات الخاطفة والتطورات السريعة والاختراعات المفاجئة، فأصبح لذلك أقلَّ من الجيل الذي سبقه صبرًا وجلَدًا، وأقوى منه رغبةً في كلِّ تغيير، وأعنفَ ثورةً على كلِّ ثابتٍ مستقرٍّ ... الخلاف الحقيقي في ذلك التصادُم بين الأجيال، هو في ضياع الاحترام والثقة ... والسَّير لا برُوح التعاون بل برُوح التحدِّي.

تاريخ هذا الكلام هو ١٩٤٧–١٩٤٨م، ولم يكُن بالطبع قد وصَلَ الإنسان إلى القمر، أو عرَفَ انعدامَ الوزن والمشيَ في الفضاء مقلوبَ الرَّأس ... فهل تُرى اليوم الصورة قد تغيَّرتْ بين الأجيال؟ أنا اليوم أبٌ لابنٍ يمثِّل جيلًا جديدًا. جيلُ الشباب الذي جاوَزَ العشرين ولم يبلغ الثلاثين. يفصلني عن هذا الجيل ثلاثة أجيال. أيُّ حوارٍ يمكن أن يقوم بيننا؟ وما مدى التعاون المطلوب منِّي بالنسبة إليه؟ ... لقد كان والِدي أنا يجهل عنِّي الكثير، يجهل أهمَّ ما في حياتي وهو الفنُّ. ما كنتُ أجرُؤ على التلفُّظ بكلمةِ الفنِّ أمامه. كنتُ إذا اقتضى الأمر أخفِّفها وألطفها بكلمةٍ أقربَ إلى القبول والاحترام

هي «الأدب». ومع ذلك، ما كان يبلغ سمعه صِلتي بالأدب — وكنتُ قد تخرَّجتُ في مدرسة الحقوق — حتى يستعيذ بالله، ويستحوذ عليه الضِّيق والقَلَق. وصرتُ كلما صادفتُ صديقًا له، بادَرَني بقوله: «أبوك يشكو إلى طُوب الأرض فزعًا من أنَّ ابنه قد أدركتْه حرفةُ الأدب!» ... وأنا الآن أنتمي إلى الأدب والفنِّ، وشاء القدَر أن يكون لي ابنٌ أراد أن ينتمي هو الآخر إلى حرفةٍ من حِرَف الفنِّ! فهل تغيَّر الموقف؟

إذا سألتَ ابني فهو قائلٌ لك إنَّه لم يتغيَّر شيءٌ، وإنَّه يشعُر بنفس الانفصال ... لم يقُل لي ذلك في مواجهة، أدبُه يمنعه، ولكنَّ رأيه نُقِل إلى مسمعي، وجعلتُ أُسائِل نفسي: كيف يمكن أن يحدُث هذا؟ ومع مثلي وفي زماننا هذا؟! ... وأخذتُ أحلِّل الموقف لأكتشفَ أين يكمُن الخطأ؟ ... أهو في هذا التجاهُل التامِّ لمَا اختاره هو من طريقٍ فنِّي؟ ربما ... فقَد استقرَّتْ في أعماقه فكرةٌ، من وقتٍ ليس بالقريب، أنِّي غيرُ متحمِّس لمَا يفعل، وأنِّي كنتُ أفضِّل بُعده عن طريق الفنِّ ... ولستُ أدري منشأ هذه الفكرة ... ربما استشفَّها من ظواهرَ كثيرةٍ بدتْ من اهتمامي بتوجيهه منذ صغره إلى أن يكون مهندسًا ... وقد سايرني هو في هذا الاتجاه بتفوُّقه البارز في علوم الرياضة إلى أن غافلني وظهَرَ فجأةً بميولٍ فنية قبل السنة الإعدادية ... كان يُكثر من الاستماع إلى الموسيقى الأجنبية في البرنامج الأوروبي للإذاعة ... ولم أشعُر ذات يوم إلا وفي يده جيتار، قيل لي إنه زهيدُ القيمة طلَبَه من والدته في عيد ميلاده ... ولم أرَ في الأمر خطورةً، وظننتُها هوايةً عابرة ... ولم أجِد ضرورةً في أن أُقيم الدنيا وأُقعِدها كما فعَلَ أهلي يومَ رأَوا في يدي عودًا أعزف عليه إلى جوار الأسطى حميدة المُطرِبة العالمة، فالزَّمن قد تغيَّر، واعترف التعليم الرسمي بالنشاط المدرسي وهوايات الشباب.

ولكنَّ هواية ابني سرعان ما انقلبتْ جدًّا ... وأصرَّ على المُضيِّ فيها وإتقانها ... وإذا بوالدته قد استقدمتْ له أستاذًا يونانيًّا متمكنًا، علَّمه العزفَ حتى برع فيه ... وإذا بي أعلَمُ بعد ذلك من ناظر مدرسته أنَّه، وقد نال الإعدادية، قد كوَّن فرقةً موسيقية بالمدرسة أثارَت الاهتمام ... وجاء الصيف فاستأذنني في الانضمام إلى فرقة طلبَتْه للعمل معها أمام الجمهور الواسع خلال الإجازة ... فلم أسمح له، ورفضتُ رفضًا باتًّا ... فأذعَنَ على مَضَض ... إلى أن كان في سَنَته التوجيهية فأتمَّ تكوينَ فرقته الحالية، ولكن في نطاق ضيِّق، وأطلقوا عليها اسم «بلاك كوتس» ... واستطاع أن يعمل بها أمام الجمهور خلال إجازة الصيف بدون علمي ... وأكمل دراسته الثانوية، والْتحق بمعهد السينما، وقد تأكَّد لي أنَّ الموسيقى تجري في دمه، ولا أملَ في أن تُفارقه ... هنا أدركتُ أنا أن لا مفرَّ ... وكنتُ قد قرأتُ لأحد كبار المُخرِجين السينمائيين أنَّ

الموسيقى، بما فيها من إيقاع، هي الذراع اليُمنى للمُخرِج ... فسكتّ، وأصغيتُ إليه يوم طلَبَ منِّي السماحَ له بأستاذ من الكونسرفتوار يتلقَّى عليه أصولَ الهارمونية ... وقد نفعه ذلك بالفعل في تأليفه المقطوعات الجديدة، وفي إعادة توزيع وتركيب المقطوعات القديمة على نحوٍ جديد خاصٍّ بفرقته ... كما سمحتُ له بالسَّفر إلى إيطاليا وغيرها في رحلةٍ فنية ... كلُّ ذلك تمَّ وكأنَّه في رأيه ينتزعه منِّي انتزاعًا ... وجعَلَ يشقُّ طريقه بنفسه وسط ضبابٍ من الفتور يحول بيني وبينه ... لم يَجِد التَّحمُّس له والمساندة إلا من والدته ... ولم يكُن بيننا — أنا وهو — من حديث إلا عن معهده ... كان أحيانًا يُجري تدريباته بالمنزل، ويعلو صوت آلاته وأنغامه، فيجِدُ دونها باب حُجرتي الموصد.

إذن لم يتغيَّر شيء كما يقول ... ولم يزَلْ هناك انفصالٌ بين الأجيال، على أنَّ هذا الوضع لم يكُن فيما يبدو لي يهمُّه كثيرًا، بل لعلَّه كان يجِدُ من الخير له ومن الراحة أن أبقى أنا بعيدًا عن مجاله.

لكن الذي كان يودُّ — هو وغيره من الأبناء ... أن يحدُث — هو أن يرى الأبَ يُشاركه على الأقل في بعض الميول ... فهو يعيش عصره تمامًا ... يُجيد السباحة والصيد تحت الماء بالرُّمح، ثم الصَّيد فوق الأرض بالبندقية، ويَحذِق الرماية، ويقود السيارة، ويحبُّ الرحلات والمغامرات وأفلام السينما التقدُّمية بكلِّ موجاتها الجديدة وكلِّ مستحدَث في مَلبَس ومَسلَك ... إنَّه ابنُ عصره، لكنَّه ينظُر إلى جواره فيَجِد عصرًا آخَرَ، يَجِد أبًا من طراز كلاسيكي.

هل الانفصال بين الأجيال وضعٌ حتميٌّ لا أملَ في تغييره؟ ... أم أنه بالتفاهُم والتعاون يمكن أن نصحِّح الوضع؟ ... نحن الآن في عصرٍ بدأ فيه تصادُمٌ عنيف بين جيلُ الشباب والجيل السابق، على نحوٍ لم يَسبِق له مثيل ... وجوهر الخِلاف دائمًا كان في اعتقاد كلِّ جيلٍ سابق أنَّه صاحب الحُكم الأصوب في شئُون العصر، وأنَّه هو المنوط به وحده تكييف الحاضر وتشكيل المستقبل، باعتباره قمَّة التجربة التي خاضت كلَّ مراحل العمر ... وكان الشباب يتقبَّل هذا الاعتقاد بتوقيرٍ دون المناقشة فيه، إلى أن جاءت الحروب والكوارث والمجاعات وفُتحتْ أبواب جهنم الأرضية على صورةٍ رهيبة، وكان الشباب هو الحطب والوقود، وأدرَكَ أنَّ كلَّ ذلك وقَعَ بتوجيهِ الجيل السابق ... هنا بدأ يتساءل: «وأين قمَّة التجربة إذن؟!» إنَّ الشيوخ لا يستفيدون من أخطائهم عبْرَ التاريخ ... وبدأ الشك يخامر الشباب، وبدأت حصون الشيوخ تهتزُّ ...

وانهارت الثقة، ولكنَّ الشباب لم يشيِّد لنفسه بعدُ حصونًا؛ إنّه حديثُ عهدٍ بثورته وشُعوره بذاتيَّته ... ليس عنده بعدُ أفكارٌ واضحة منسَّقة ... إنها ككلِّ ثورةٍ في بدايتها ... تدكُّ الحصون القديمة ثم تقِفُ حائرةً بعضَ الوقت لا تدري ماذا تفعل! ... لذلك عندما قامت ثورةُ الشباب في فرنسا وهزَّتْ حكم ديجول لم تقُم وراءها فلسفةٌ واضحة ... ولم يظهر بين الشباب مَن استطاع التعبير عنها سوى واحدٍ أو اثنَين، ولم يكُن كلامهما أيضًا بالمُقنِع أو العميق، وعندما أرادوا شعاراتٍ تضاربَت الاتجاهات، وانتهوا إلى رفْعِ صُورِ رجالٍ مثاليِّين شرفاء مجاهدين، من أمثال: جيفارا وهوشي منه وماوتسي تونج، استوى في ذلك أبناء أصحاب الملايين وأبناء السُّوقة المُعدِمين.

وقد حارَت الحكومات أمام هذه الثورة ... فهي أخطر لديها من إضرابات العمَّال ومطالب المُزارِعين ... ذلك أنَّ حركات الطوائف تقوم على أغراضٍ محدَّدة من رفْعِ أجورٍ أو مستوى معيشة، لكنَّ صيحات الشباب في كلِّ مكانٍ من الأرض ليس من السهل تحديدها ... إنها صيحةُ العصر كلِّه ... إنها يقظةُ المستقبل الرهيب ... والمستقبل لم يعُد كلمةً غامضة ... آلةٌ حقيقية تتحرَّك ... تقِفُ على أقدام أمامنا في صورةِ شبابٍ سيعاصر سنة ٢٠٠٠م وما بعدها ... وحده يقِفُ وقد اختفى مَن حوله كلُّ المُنتَمِين إلى جيلِ الشيوخ. وهو لا يريد أن يصِلَ إلى أعتاب القرن القادم وقد دفعتْه من ظَهْره عقولٌ تسوس العالم بسياسةِ القرن الماضي ... لكنْ، كيف السبيل؟

ما العملُ والشباب لا يثقون، وهم في نفس الوقت لا يعرفون ماذا يفعلون؟ ومن هنا الحيرة التي تبدَّت في مسلكهم غيرِ المألوف ... وهم كلَّما ثاروا اشتدَّ الجيل السابق في اعتصامه بحصونه ... واتسعتْ شقَّة الانفصال بين الأجيال.

وما دامَت الثقة قد فُقدتْ؛ فالكلمات القديمة أيضًا أصبحتْ محلَّ شكٍّ.

فالنصح والإرشاد والموعظة، وغيرها من الكلمات التي يستخدمها الجيل القديم، أصبحت في نظر الشباب مثيرةً للسخرية ومرادفةً للتسلُّط والاستعلاء، مهما يكُن فيها من رغبةِ النفع ونيَّة الإصلاح.

لقد كان ابني يصمُت أمامي تأدُّبًا كلَّما بذلتُ له النصح والموعظة الحسنة في أمورٍ تخصُّه وتهمُّه، لكنَّه ما يكاد يتركني حتى يهمس للآخَرين: «إنه يريد أن يمارس سُلطته الأبويَّة!» ... إذن لا بد من تغييرِ وسائل الاتصال لجيل الشباب، ولا بد من تعديلِ طريقةِ محادثته، والبحث عن لغةٍ جديدة وأسلوبٍ جديد للتَّفاهُم معه. وأولُ كلِّ شيء، يجب أن نتجنَّب مخاطبته من فوق أسوار حصوننا القديمة؛ يجب أن نترك عالمنا

ونذهب إليه في عالمه. ففكرة مراحل العمر المتّصلة اتصالَ درجات السُّلم، المؤدِّية إلى قمَّةٍ تُشرف وتسيطر على بقيَّة الدرجات، هي فكرةٌ لم يعُد لها اليوم قبول. والمقبول اليوم هو أنَّ كلَّ مرحلة لها شخصيتها وذاتيتها وقوانينها ولغتها ومفهوماتها ... أيْ عالمها الخاص. إنَّ مراحل العمر ليست درجات سُلّم، بل ربما كانت عربات قطار؛ كلُّ عربةٍ مختلفةٌ منفصلةٌ عن الأخرى بمَن فيها وما فيها، ومع ذلك متَّصلة ببابٍ ضيق. والقطار كلُّه يسير إلى غايته المحتومة، وركَّاب العرَبَة الأخيرة، من كهول وشيوخ، لا يمكن أن يفهموا ويعرفوا ما يجري في عربة الشباب إلا إذا انتقلوا إليها، وجلسوا بينهم في مقاعدهم، وهذا ليس بالأمر السهل. إنَّ انتقال راكبٍ من عربة إلى أخرى يجعل الأنظار تتَّجه إليه في شيء من الرِّيبة؛ فيخيم الصمتُ على الجالسين، ولا تنفتح الصدور وتنطلق الألسنة، إلا بعد الاطمئنان إليه. وهذا لن يحدُث إلا إذا نجَحَ في اكتساب ثقتهم وتفهُّم همومهم والتحدُّث بلُغَتهم، والنجاح في ذلك ليس مضمونًا دائمًا. هناك من المفكِّرين، أمثال «ماركيوز»، مَن أراد الدِّفاع عن الشباب؛ فتكلَّم بلغته هو، وقد صفَّق له البعضُ منهم لمجرَّد وقوف مفكِّر ممتاز إلى جانبهم. ولكنَّ المحامي الذي يقف إلى جانب موكِّله ويكسب قضيته، ليس هو بالضرورة الذي يكسب قلبه ويعيش داخل عقليته.

تلك هي الصعوبة لمَن يفكِّر في رحلةٍ إلى دنيا الجيل الجديد. وهي أصعب بالنسبة إلى مثلي ممَّن لا تجمعه بالشباب اليوم أرضٌ مشترَكة من ميولٍ عصرية أو رُوحٍ مُنطلِقة ... لذلك عندما لذلك عندما اقترح عليَّ أصدقاؤنا في الأهرام، وأغروني بالذهاب لمشاهدة ابني وفرقته؛ صدَمَني الاقتراح ووجدتُ الأمر شاقًّا، بل كِدتُ أراه مستحيلًا؛ فأنا الآن لا أخرج ليلًا، فما بالي لو سهرتُ إلى ما بعد منتصف الليل! ... ولكنَّهم زيَّنوا لي الأمر ويسَّروه على مداركي بقولهم إنَّ السهر ليلةً واحدة ثمنٌ بخسٌ إلى جانب محاولة فَهْمك لهذا الشباب. وإنَّه لمن المستغرَب لشاهدٍ على عصره أن يفقد حُب الاستطلاع إلى هذا الحدِّ!

قلتُ انتظروا حتى أسأل ابني أولًا؛ لأرى وقْعَ هذا على نفسه، وهل يسرُّه حضوري حقًّا أو أنَّه سيتوجَّس منه خِيفة؟ ... ولمَّا فاتَحْتُه في الأمر أطرَقَ مليًّا، ثم رفَعَ رأسه وقال بلهجةِ المُستريب إنَّه يعرف مقدَّمًا شُعوري نحوهم وما أنا قائلٌ فيهم. وروى لي أنَّ المغني «فرانك سيناترا» عندما استمع إلى ابنته وقد احترفتْ مثله الغناءَ، وسُئل عن رأيه فيها سفَّهها ورماها بجهلِ أُصول المِهنة. كذلك فعَلَ «شارلي شابلن» مع أولاده

عند احترافهم الفنَّ ... إنّها نمرةٌ قديمة معروفة أن يقلل الفنّان الكبير من شأن أولاده، تعاليًا أو تظاهُرًا أو خوفًا من اتِّهامه بالتحيُّز والمجاملة.

فأكَّدتُ له أنَّ هذا لن يحدُث معي، وربما حدث لو أنَّ حرفته كانت مماثلةً لحرفتي — أي الأدب والكتابة — كنتُ انهلتُ عليه فعلًا بالنقد وأرهقتُه بالملاحظات، وما كنتُ أستطيع كبْحَ جِماحَ رغبتي في تقليد «سيناترا» و«شابلن». وكلاهما يُشارك أولادَه في نوعِ الحرفة. أمَا ونحن مختلفان في نوعِ العمل؛ فليس لابني أن يخشى منِّي، ولا أرضى لنفسي أن أخوض فيما ليس لي عِلم به. ولن يكون موقفي سوى موقفِ المُشاهِد العادي. وأعِدُه أنِّي سأُفرِّغ من نفسي كلَّ ميلٍ مُسبَق، ومن رأسي كلَّ رأيٍ شخصي. ولن أُقدم على المشاهدة برُوح التعالي أو الاستهانة أو التحدِّي. فمهما يكُن من أمرِ اتجاهاتي في الفنِّ؛ فإنِّي أكره الظهور بمظهر المستخفِّ باتجاهات الآخَرين. ولستُ أنوي أن أكون المفكِّر الذي يعتصم بذوقه في أبراج ألوانٍ من الفنِّ استقرَّ تقديسها مدى القرون، ويتعالى على أنواعٍ أُخرى جديدةٍ لم تَزَل محفوفةً بالشكوك، دون أن يكلِّف نفسه شجاعةَ تذوُّقها أو يجازِف بالحديث عنها. وأعترفُ على نفسي أنِّي كنتُ، وربما لم أزل، من هذا الطراز، وسبَقَ لي أن كتبتُ مُستهينًا بموسيقى الجاز ... وأذكُر أنَّه عندما جاء «جان بول سارتر» و«سيمون دي بوفوار» إلى مصر أن بدر منِّي كلامٌ ضدَّ هذه الموسيقى؛ وإذا بي لدهشتي أُفاجأ بتقديرٍ غريب من هذَين المفكِّرَين لموسيقى الجاز هذه، تأكيدًا لمَا نشراه في هذا الصدد من كتبٍ، وخاصة كتاب «مواقف» لسارتر، وأدركتُ يومئذٍ أنَّهما لا يريدان أن يبتعدا عن تذوُّق وتفهُّم كلِّ ما يتَّصل برُوح العصر.

لكن السؤال الآن: ما هي رُوح العصر؟ إنَّ الإجابة ليست بسيطةً، والرأي عندي أن نتلمَّسها في أبرز الدلالات. ولا شكَّ في أنَّ أهمَّ ما يدلُّ على رُوح العصر سرعة الإيقاع وصخَب الحركة؛ ذلك أنَّ العام الواحد من عصرنا الحاضر تقع فيه من الأمور والأحداث وتتمُّ فيه من الاكتشافات والمغامرات، ما كان يتمُّ من قبل في أكثر من مائة عام. لم يعُد عصرنا عصرَ الجلوس والتأمُّل، بل عصر التفكير المتحرِّك. وانعكس ذلك على الشباب الذي فتَحَ عينَيه فوجد نفسه في قلبِ العصر الجديد؛ فلم يُطِق جلوسًا ولا هدوءًا ... إنَّه يريد أن يتحرَّك مع العصر المتحرِّك في موسيقى متحرِّكة صاخبة، لا أن يسترخي مسمَّرًا في كرسيٍّ نصفَ مُغمض في موسيقى ثابتةٍ متأمَّلة. إنه لا يريد مجرَّد الاستماع بل يريد أيضًا المشاركة. لا يريد أن يبقى في مكانٍ، بل يطمح إلى الانطلاق في كلِّ مكان، ويكتشف الأرض سيرًا على الأقدام، أو قافزًا إلى سيارة مارَّة،

أو منبطِحًا على ظهْر سفينة عابرة، لا يقف أمام عائقٍ من خلو الجيب، أو خوف المخاطر، أو رهبة المجهول.

إنَّ أهمَّ مظهرٍ للشباب اليوم، هو أنَّه استشفَّ بغريزةٍ خفيَّة أعظمَ رؤى المستقبل، وهي «وحدة العالَم»؛ فالكرة الأرضية الواحدة المتَّحدة في نظَرِ إنسانِ الفضاء وهو خارجها، يراها الشباب كذلك من داخلها ... فاتَّحدوا جميعًا الأبيض والأسود والأصفر في كثيرٍ من الأذواقِ والأهداف والمُثُل العُليا الإنسانية، واجتمعوا في شِبه زيٍّ واحدٍ ورقصٍ واحدٍ في كلِّ مكان؛ تعبيرًا عن حركة الحاضر، وبشيرًا بوحدة المستقبل ... إنَّها إذن دلالةٌ وعلامة ... ربما ليست موجةً طارئة، لكنَّه قد يكون هو العصر يصبغ بلونه، ويحرِّك بإيقاعه هؤلاء الشباب. وأكثر من ذلك ما شاهدتُه في باريس في أواخر السبعينيات من انتشار حوانيت الحِلاقة التي تقوم فيها النساء بالحلاقة للرجال. وعليها «لافتة» بها عِبارة «مونوسكس» — أيْ «جنس موحَّد» — لا تعرف تسريحة الشَّعر فيه أهي لرجلٍ أو لامرأة! ... ثم شاهَدنَا — أنا والدكتور حسين فوزي — مسرحية «الملك لير» لـ «شكسبير»، تمثِّلها فرقةُ «شباب» بأسلوبٍ عصريٍّ يسمُّونه «أسلوب الصدمة»؛ أي صَدْم الجمهور بالملك لير العجوز في صورة «شاب» كثيرِ الحركة والعنف؛ يجري خلْفَ بناته ركلًا بـ «الشلاليت» وصياحًا مزعِجًا بشِعر «شكسبير»! فاستعذنا بالله من هذا العصر! عصر القنابل النووية وصُور «بيكاسو» و«الجنس الموحَّد»! أيدوم هذا العصر المجنون إلى قرنٍ آخر؟! ... لا أظنُّ.

كان القرن الماضي قرنَ التأمُّل الجالس، أمَّا القرن الحالي فهو قرن الفِكر «المخبول» الراكض ... وعندما بدأ القرن الماضي يغادر منتصفه وظهرتْ بوادرُ الرغبة في الحركة ممثَّلة في فالسات جوهان ستراوس؛ استقبلها الشعب في الحانات والطُّرقات بالحماس، وطرَقتْ نغمات «الدانوب الأزرق» أبواب القصور، فارتاع النُّبلاء والأرستقراطيون والمتديِّنون والمفكِّرون المتَّزنون، واعتبروها فضيحة! ... واستمرَّت الموسيقى الكلاسيك نفسها في التجديد إلى حدِّ ظهور نظرياتٍ فيها تعتبر «النشاز» نوعًا من التجديد!

ولم تكُن موجةً طارئة كما يتوقَّع دائمًا التقليديون، ولكنَّها كانت استجابةً لصيحة العصر النووي الذي لا شكَّ في أنَّه قد ظهرتْ أعراضه! ... واستمرَّت في تطوُّرها، واتَّخذت من الأثواب والتحوُّلات ما نقل الفالس من صورته الماضية إلى صور أخرى

ممثلة في هذه الأنواع من الموسيقى الراقصة الحاضرة ... وأصبح الفالس الذي كان يعدُّ في وقته منتهى الحركة هو اليوم منتهى الهدوء.

ولكننا نحن الشيوخ الذين عشنا طويلًا في أمجاد القرن الماضي واعتادتْ أسماعنا موسيقى التأمُّل، ولا تستجيب أجسامنا إلى موسيقى الحركة، ماذا نحن فاعلون؟

ما من شكٍّ في أنَّ موسيقانا القديمة ستظلُّ باقيةً ... فالإنسانية في حاجة دائمًا إلى تراثها الخالد الجميل ... ولكنَّ المشكلة هي: هل نُغلق أنفسنا مع كنوزنا الخالدة ونسدُّ آذاننا عن صخب أبنائنا؟ أو نحاول أن نفتحها ونفهم ماذا يفعلون؟ ... وأكثر من ذلك أن نحاول جاهدين تذوُّق بعض ما يتذوَّقون، حتى نلتقي بهم ولو في منتصف الطريق؟

تلك هي محاولتي ... وقررتُ الذهاب والله المستعان ... وخوفًا من تردُّدي في آخرِ لحظة صمَّم الأستاذ الفنَّان صلاح طاهر أنْ يُرافقني باعتباره أستاذَ إسماعيل في معهد السينما، قائلًا إنَّه أقدَرُ الناس فهمًا لطبيعته الفنية، كما شاء الدكتور يوسف إدريس أن يكون معنا باعتباره أقربَنَا إلى الشباب، وأكثرَنَا اهتمامًا بدراسته، وأشدَّنا دهشةً لعدم معرفتي بما يؤدِّيه ابني من عروض طالما تمنَّى أنْ أُشاهدها.

لكنْ لماذا لم يُدهش أحدٌ دهشةً كهذه لعدم مشاهدة ابني بعرضٍ مسرحياتي؟! ... لقد سُئل ابني ذاتَ مرة في ذلك؛ فقال إنَّ هذا من محاسن الصُّدف، ألَّا يعرض هو أدبًا ولا أعرض أنا موسيقى، وأنْ يبقى هو في دكَّانه وأنا في دكَّاني، وألَّا يتدخَّل أحدُنا في شئُون الآخر.

ذكَّرني هذا بموقفٍ قديم حدَثَ لي مع والدي، يدلُّ على ضِيق، الأبناء بتدخُّل الآباء في أعمالهم ... كان ذلك في يومٍ من عام ١٩٣٥م، وكنت مديرًا للتحقيقات بوزارة المعارف وكاتبًا معروفًا، فزَارَني والدي في مكتبي، وكان عندي صحفي يُجري معي حديثًا في الأدب والفنِّ ... وإذا بي أُفاجأ بوالدي يتدخَّل في الحديث الصحفيِّ، ويريد أن يتَّجه به الاتجاه الذي يروق له هو، ويصحِّح لي آرائي تبعًا لمَا يريد ويتراءى له ويتَّفق مع نظراته ومُعتقداته، وما أشعُر إلا وقد نُحِّيتُ أنا وعُزلت وعُوملت كما لو كنتُ لم أزَل طفلًا.

نفس هذا الشعور يخالج ابني اليوم عندما أتدخَّل في شأنٍ له، ونفس الألفاظ يردِّدها: «والدي ما زال يراني الطفل الصغير!» يظهَر أنَّه ما من شيءٍ يعقِّد الأبناءَ نفسيًّا كهذه الفكرة.

أذكَر أيضًا عن والدي أنْ وقعت في يده بالمصادفة نسخة مخطوطة لمسرحيتي شهرزاد قُبيل نشرها، وقرأ فيها عبارةً تصِفُ جسد شهرزاد الجميل والشَّهوة التي تسعى في الظَّلام؛ فجاء يقول مشمئزًا: «ما هذا الكلام المُخجِل الذي يخدش الحياء، هذه قلةُ أدَب، يجب أن تُبادر فورًا إلى محو هذه العبارات البذيئة.» ... قلتُ بعد ذلك لنفسي: كيف لو كان عاش ليقرأ الكرَّاسة الحمراء في روايتي «الرباط المقدَّس»؟!

* * *

حان موعد الذهاب لمشاهدة إسماعيل وفرقته ... كم مضى من الأعوام لم أضع قدَمي في مكانٍ راقص؟ ... وهل أستطيع احتمال الرقص والراقصين؟ ... وأخذتُ أسترجع أيام شبابي في أوائل العشرينيات ... يومَ هبطنا باريس أولَ مرَّة ... أغراني اثنان من أصدقاء عمري، هما: المرحومان الدكتور حلمي بهجت بدوي، والدكتور مصطفى القللي، بأن أتلقَّى معهما دروسًا في الرقص، مؤكِّدَين لي أهمية الرقص في تلك البلاد، وضرورة معرفته لمَن يُنتظر له أن يُدعى يومًا إلى الحفلات، ويتَّصل بالمجتمعات فأذعنتُ لهما، ودلَّنا أحدُ أولاد الحلال على مدرِّس يُدعى «أرتورو» طلَبَ من كلِّ واحدٍ منَّا ما يساوي جنيهًا، وأعطى كلًّا منَّا دفترًا صغيرًا به عشر تذاكر، كلُّ تذكرة تخوِّل الحقَّ في أخذ درس ... وضمن لنا بعد عشرة دروس كاملة أن نُصبح من مهَرةِ الراقصين ... وذهبنا إلى الدرس الأول ... وبدأ بالصَّديقَين ... ولم يكَد يخطو بهما خطوة ويدور دورة، حتى بدتْ عليهما علاماتُ النجابة وظهرتْ بشائر الفَلَاح ... أمَّا أنا فعلى الرغم من هدوء الرقصات في ذلك العهد فقَدْ شعرتُ بعد أول خطوة ودورة أنَّ الدنيا كلَّها قد اسودَّت في نظري، وأنَّ دماغي هو الذي لفَّ ودار من الدُّوار، وأسرعتُ أوزِّع تذاكري على الصَّديقَين، ورضيتُ من الغنيمة بالإياب.

إذن فلْيهوِّن الله عليَّ مثل هذه الليلة، ولْيُتمَّها على خير!

وأخيرًا حملني الرِّفاق إلى السيارة ... ولم يمضِ قليلٌ، حتى وجدتُ نفسي وسط أضواءٍ خافتة، ثم فجأةً ساطعة بمختلف ألوان، خطَفَت من كلِّ جانبٍ أبصاري غير المعتادة ... والرقص دائرٌ في الحلبة، وعيونٌ برَّاقة مشدودة إليه، ورءُوس أو نفوس خيِّل إليَّ أنَّها تهتزُّ فوق موائدَ حافلة، وطعام وشراب يجيء ويروح فوق صِحافٍ كأنَّها تطير من حولي في الهواء. وصِرتُ كريفيٍّ في مولد ... مولد يحضُره لأول مرَّة ... وكان هذا الذُّهول، هو ولا شكَّ ما توقَّعه منِّي أصحابُ المؤامرة في «الأهرام». ولقد ذُهلت فعلًا ولم أدرِ للحظاتٍ أين موضع قدَمي، ولا إلى أين هي سائرةٌ بي ... وتركتُ

قِيادي للرِّفاق، يُجلسونني حيث شاءُوا ... لا أستطيع أن أصِفَ ليلتي، ولا أريد. كنتُ قد أخذتُ على رِفاقي العهود والمواثيق ألَّا أتأخَّر كثيرًا عن منتصف الليل، وإلا تركتُهم وانصرفتُ وحدي، فوعدوني خيرًا ... وبدأنا نلتفتُ إلى ما حولنا ونُشاهد ونندمج شيئًا فشيئًا ونتأقلم ... وإذا بهم يفاجئونني بأنَّ الساعة قاربت تمام الثالثة صباحًا؛ فقفزتُ من مكاني أصيح بهم: كيف حدَثَ هذا؟

الحقُّ أنِّي لم أشعُر بالوقت ولا بالملل ... حيوية الشباب الدافقة من حولي مُعدِيةٌ كالمرض ... إنَّ الصحة والمرض سيَّان في العدوى في بعض الأحيان ... لم يعُد عندي شكٌّ أنَّ الجذوع العتيقة الراسخة في الأرض يمسُّها نبضٌ من نشاط الأغصان ... هذه الأغصان المتمايلة بلُطفٍ مع الأنسام، المتحرِّكة بعنفٍ مع الرِّياح، قانون حياتها هو هذه الحركة التي نسمِّيها الرقص ... وما من قوةٍ في الأرض تستطيع وقْفَ هذا القانون على مدى القرون ... كان يخيَّل إليَّ أنَّ جذع الشجرة يُنزِع من عنف اهتزاز الغصون، ويخشى على نفسه من الاقتلاع، لكنْ مَن يدرينا؟ ... لعلَّ ذلك يسرُّه ويُبهجه، ويرى فيه دليل حياةٍ له هو أيضًا وهو الجامد كخشبةٍ تنتظر السُّوس ... وقد يستفيد أيضًا ذلك الجذع الحيُّ من حركة الأغصان معرفةَ اتجاه الرِّيح!

ولفَتَ الرِّفاق أنظاري إلى إسماعيل وهو يحمل جيتاره ويعلِّق ساكسفونه وينتقل بينهما عازفًا ونافخًا؛ فلَمْ أتبيَّن فيه الابنَ الهادئ أمامي، الصامت في المنزل على الدوام ... القليل الحديث عن نفسه وعمله ... أحيانًا أشجِّعه على الكلام، أفتح له ما يحبُّه من موضوعات، فأسأله عن بعض ما يصادفني في الصُّحف الأجنبية من أسماءِ أعلام الجاز، فقَدْ يُدهشني أن موسيقى الجاز أصبح لها من الأهمية ما حمَلَ المجلات الأدبيةَ والفنية المحترمة التي أطالعها على أن تُفرد لها عمودًا دائمًا إلى جانب عمود الموسيقى الكلاسيكية.

كان الموضوع يُخرجه من قوقعته قليلًا ... فهو بطبعه قلَّما يفيض بالكلام ... إنَّ الصمت والاقتضاب عنده أكثر من الإفاضة والاسترسال ... وما يعلمه ويحسُّه أكثر مما يتكلَّم به. ومن القليل الذي تحدَّث به؛ تبيَّنتُ أنَّه ملمٌّ كلَّ الإلمام بتفصيلات الفنِّ الذي اختاره ... كما اتضح لي أنَّه ليس بعيدًا عن الموسيقى الكلاسيك التي تُرضيني، وله فيها نظراته، وخاصَّة إعجابه بفنِّ «شوبان» الذي أهملتُ أنا تقديره حقَّ قدْرِه ... وكذلك «كواتيورات بيتهوفن» ... واعتقاده أنَّ موسيقى الجاز الحقيقية يجب أن تقوم على أُسس الموسيقى الكلاسيك مع الإضافة إليها بعد ذلك كما تشاء ... وكان هذا ما

طمأنني بعض الشيء ... فاعتقادي دائمًا أنَّ نوعية العمل لا تهمُّ، وأنَّ قيمة أيِّ عملٍ هي في تعميقه وإتقانه ... ورُبَّ عملٍ كبيرٍ انخفض بسطحيَّة أصحابه، وعملٍ صغيرٍ ارتفع بعُمق أصحابه ... وذرَّة التُّراب تبقى ذرَّةَ تُرابٍ لمَن يراها كذلك، وتُصبح عالَمًا تدور فيه أفلاكٌ لمَن يكتشف فيها ذلك.

وجاءت الاستراحة، واقترح الرِّفاق دعوةَ أعضاء الفرقة لتحيَّتهم. وكان هدفهم الأكبر، كما كان هدفُ أصحاب هذه المؤامرة في «الأهرام»، هو أن يجمعوا بين الأب وابنه، وأن يحثُّوا الوالد على تحية ولده، وتصوير ذلك بقلمه ... موقفٌ دقيق! ... وإذا كان من الطبيعي أن يرحِّب أبٌ بابنه؛ فإنَّ كتابة ذلك أمرٌ مُحرِجٌ غايةَ الحرَج. ثم إنَّ عاطفة القلَقِ عند أبٍ مثلي تغلب عاطفة الرضا. ولم أعُد أدري كيف أرضي الأطراف التي دفعتْني إلى هذا الموقف ... وبدا لي أنْ لا نجاة إلا في الصِّدق ... فلْأكُن صادقًا مع مشاعري وكفى ... ومشاعري كأبٍ مفهومة ... ولا أريد أن أُسهب فيها أكثر من ذلك ... لكنَّ الجديد هو أنِّي شعرتُ حقًّا بفرحٍ غامرٍ وحبٍّ وعطفٍ على شباب الفرقة كلِّهم كمجموعة نادرة الاتِّساق في المحبة والمودَّة والفنِّ ... بعثت في نفسي سعادة الصِّبا ... هؤلاء الشباب المرِح الطيِّب المجتهد، كنتُ أمرُّ بهم عن بُعد كشبَح مخيف يتوجَّسون منه وهم يُجرُون تدريباتهم الشاقَّة بصبرٍ ودأبٍ وإصرار ... كنتُ أتحاشاهم خشيةَ أن أُخجلهم أو أُشعِرهم بالتدخُّل في شأنهم ... كان بيني وبينهم جدار ... وكانت هذه الليلة أولَ مرَّة نتلاقى فيها بالمُصافحة، وأشعُر فيها أنَّهم فرحون هُم أيضًا بهذا التلاقي.

إنَّ أهمَّ ما في تلك الليلة عندي، هو أنَّ هذا التلاقي بالشباب أشعرني أنَّ في الإمكان إزالةَ الأسوار القائمة بين الأجيال.

مسئولية أدباء الشباب

نحن اليومَ على أبوابِ مرحلةٍ من مراحل الأدب العربي الحديث. مرحلة يُوشك أنْ يتسلَّم فيها أدباء الشباب المِشعَل الذي يُضيء للمستقبل، وهي مسئولية لا ريب في أنَّهم قد بدءُوا يشعُرون بوِقْرها على كواهلهم، ولذلك جعلوا يعرضون لمشكلاتٍ جديدة، ظنُّوا أنَّ من واجبهم أن يقطعوا فيها برأيٍ حاسم، فكان أنْ تجادلوا في أمرِ اللغة الفُصحى والعامية، وأدب المجتمع، والفنِّ للفنِّ ... إلى غير ذلك من الموضوعات التي لا ينتهي فيها حديثٌ ما دام بابها قد فُتح.

ولا بأسَ من الحديث في هذه الشئُون، ولا ضررَ من تصارُع الآراء في ميدان الأدب والفنِّ والفكر، فكلُّ هذه المناقشات منتهيةٌ بإذن الله في ضمير الفنَّان الحقِّ، إلى زبدٍ يذهب جُفاءً؛ لأنَّ الفنَّان الحقَّ لا يُصغي إلى كلام، ولكنَّه يعكف على عملٍ. وما من رأي في الأدب والفنِّ، كان له قيمة بمفرده، ولا يعيش الرأي إلا من خلال الأثَر.

اصنعْ أولًا الأثر في الأدب والفنِّ، وهو يتكلَّم لك عن آرائك أمام الأجيال، لذلك لن تكون لكلِّ تلك المناقشات، وكلِّ تلك الآراء — ما دامت طائرةً في الهواء، ولم تصاحبْها أعمال — قيمةٌ تنفع الناس وتمكُث في الأرض ... العمل القيِّم هو كلُّ شيءٍ في الأدب والفنِّ؛ الخَلْق الإنشائي هو وحده الباقي الراسخ بما نُفخَ فيه من رُوح الحياة الباقية.

وهنا يأتي سؤالٌ: ما هو العمل القيِّم؟ ... أهو المكتوب بالفُصحى أم المسجَّل بالعامية؟ ... أهو الذي يُخاطب الخاصَّة أم الذي يُكتب للعامَّة؟ ... أهو الأدب للحياة أو هو الفنُّ للفنِّ؟

إذا الْتمسنا الجوابَ عند الآداب الكبرى العالمية؛ فإننا نجِدُ فيها لكلِّ مذهبٍ من هذه المذاهب مكانَه المُعترَف له فيه بالقيمة والبقاء.

فالعمل القيِّم هو العمل القيِّم وكفى.

ومع ذلك يجب أن نحاول قليلا تحديدَ معنى القيمة في العمل الفني، وهو أمرٌ شاقّ، فلْنحاول على كلِّ حال؛ أظنُّ أنَّ قيمة الأثر الفني مردُّها من حيث الشكل: إلى الكمال والإتقان والقدرة والتمكُّن، حتى عندما يلجأ الأديب الفنَّان إلى استخدام لغةٍ عامية؛ فهو لا ينبغي له أن يلجأ إليها لعجزٍ أو لهروب، بل لتفوُّقٍ واقتدارٍ، ورغبةٍ فنية في إحكامِ التعبير، هكذا فعَلَ «روبرت لويس ستفنسون» وهو من أبلغ الشعراء الإنجليز كتابةً بالفصحى عندما جعَلَ البحَّارة يتحاورون بلُغتهم العاميَّة المُستبهَمة، وهكذا فعَلَ «شارلز ديكنز» وهكذا فعَلَ «جورج دي كورتلين».

القدرة والتمكُّن والإتقان والطَّمع في الكمال ... تلك هي صفات الأثر القيِّم من حيث الأسلوب والشكل. أمَّا من حيث الموضوع، فأبرز الصفات اللازمة هي: الإنسانية، هي كلُّ ما يؤثِّر في الإنسان، في كلِّ زمانٍ ومكان، وما يدفعه إلى السموِّ بنفسه، وما يخطو بمجتمعه إلى مصيرٍ أفضل ... كلُّ ذلك في إطارٍ من المتعة الفنية الرائعة الراقية الباقية.

الإتقان والإمتاع والإنسانية ... تلك أهمُّ صفات الأثر الأدبي والفني في نظري.

فمَن أنتج في الأدب أو الفنِّ عملًا غيرَ مُتقَن في أسلوبه الفني ولا مُحكَم في تعبيره الأدبي؛ فقَدْ وقَعَ في العجز الشكلي.

ومَن صنَعَ عملًا لا متعة فيه ولا روعة؛ فقَدْ صنَعَ شيئًا آخَر غير الأدب والفنِّ.

ومَن صنَعَ عملًا مُتقنًا مُمتِعًا رائعًا، ولكنَّه فاقدُ المعنى الإنساني والفكرة الدافعة للإنسان والمجتمع ... فقَدْ صنَعَ أدبًا وفنًّا ... ولكنَّه أدبٌ وفنٌّ من طرازٍ بارعِ الصَّنعة، زهيد القِيمة، كالزُّجاج البَخْس البرَّاق، لا الجواهر النفيسة الثابتة.

والآن، فلْنعُد إلى مسئولية أدباء الشباب، أو مَن يسمُّونهم اليومَ كذلك، وهم أولئك الذين ستتركز في جهودهم الحركة الأدبية والفنية في السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة.

ما هي حقيقةُ المسئولية المُلقاة على كواهلهم؟

أول شيءٍ يجب أن يكونوا حرَّاسًا على القِيَم الحقيقية في الفكر والفنِّ، وأنْ يُجدِّدوا ما شاء لهم التجديد، ولكنْ داخلَ إطارِ الإتقان والتفوُّق والتجويد، ومن أجل ذلك يجب أن يحاربوا رُوح الاستخفاف والاستهتار والابتذال في كلِّ ما يمسُّ الأدب والفنَّ،

فعصر السرعة بصحافته وإذاعته، وعصر التعليم العام بجماهيره الواسعة المستهلِكة لرخيص البضاعة الأدبية والفنية ... كلُّ هذا يقضي نهائيًّا على الأدب الحقيقي النابع من المواهب الحقيقية، إذا لم يَجِد في أدباء الشباب، قادة الغد، حاميًا قويًّا للإنتاج الجيِّد، وسدًّا منيعًا يحول دون تسرُّب الغذاء الفكري الفاسد إلى نفوس الشعب. كما أنَّ عليهم واجبَ الدفاع عن حرية الأدب ومسئوليته، والأديب الحرُّ في نظري هو المسئُول أمام ضميره وحده، عمَّا يكتب ويُنتج خدمةً للإنسان والمجتمع بالطريقة التي يراها هو وحده؛ لأنَّ الأديب الحرَّ الحقَّ هو المسئول أمام نفسه وحدها.

فأدباء الشباب هم المسئولون عن مجتمعهم الجديد أمام أنفسهم وأمام التاريخ الأدبي؛ لأنَّهم هُم الذين سيؤثِّرون فيه بكتاباتهم تأثيرًا مباشِرًا في السنين الثلاثين أو العشرين القادمة. وأنَّ آثارهم ستكون هي القدوة والمثال لجيلٍ جديد من غلمان اليوم ومراهِقيه.

وقد يسأل سائلٌ: وما أثر جيلنا نحن في السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة؟ ... فأقول: مَن يدري؟ ... ربما قُرئتْ كتبنا في الغد كما نقرأ اليوم كتب «المويلحي» و«المنفلوطي» ... وقد تصبح أساليبنا صالحةً للدراسة التاريخية، وغير صالحة للاستعمال العصري.

وهل يستطيع كاتبٌ اليوم أن يكتب بأسلوبِ «المويلحي» أو «حفني ناصف» دون أن يتعرَّض لسخريةِ الساخرين؟

وهل يكتب أحدٌ اليوم في إنجلترا بأسلوب «شكسبير» ... أو حتى بأسلوب «ثاكري» أو بفنِّ «توماس هاردي» أو «جالسورثي»؟

وهنا تظهر مسألةٌ أدبية.

ما هو إذن الأثر الحقيقي للقدماء؟ ... ما هي قيمة فنِّ الأجيال الماضية بالنسبة إلى الجيل الطالع؟

للإجابة عن هذا السؤال، يجب أن نفرِّق بين الاحتذاء وبين الاهتداء، بين المعالجة وبين التكوين.

الواقع أنَّ الجيل الجديد لا يحتذي في المعالجة إلى أقرب معاصِريه إليه؛ لأنَّه يتَّصل بأساليبهم الجديدة اتصالًا مباشرًا، ولكن ما من أديب أو فنَّان يصحُّ أن يسمَّى أديبًا أو فنانًا ما لم يستوعب فنَّ القدماء ويهتدي بهم في تكوينه الأدبي والفني.

الأساليب الأدبية والفنية في تطوُّر مستمرٍّ ... ولكنَّ أساليب الأجيال الماضية يجب أن تُسهم جميعها في تكوين الأديب الجديد أو، الفنَّان الحديث.

نخلص من هذا كلِّه إلى أنَّ أدبنا في العشرين أو الثلاثين سنة القادمة قد يجعل جيلنا صالحًا لمهمَّة الهداية والتكوين، ولكنه سيضع القيادة الفعلية والنماذج المباشرة في أيدي أدباء الشباب.

وبهذه النماذج سيُلَوِّنون وجه الأدب بلونه الجديد.

وتلك مسئوليتهم ... ويا لها من مسئولية!

الشباب والتجديد في الشعر

لستُ ممَّن يتمسكون بعمود الشِّعر القديم وأوزانه وقوافيه بغير جدال ومناقشة، فأنا مستعدٌّ دائمًا للإصغاء إلى كلِّ رأيٍ جديد، وليس كلُّ شِعر يدبج على الطريقة القديمة يُعجبني، فمن شعراء اليوم مَن يحاول تقليد القديم بفخامةِ الديباجة، وغرابة اللفظ، ورصانة العبارة، ورنين الوزن، والتزام القافية، فإذا بي أجد الناظم ولا أجد الشاعر! ... وإنَّ من بيننا اليوم مَن يزعم أنَّه شاعرٌ مُجيد لمجرَّد أنَّه يملك قاموسًا عربيًّا، ويُجيد القوافي والأوزان، ويجِد مَن يصدِّقونه ويظنُّون أنَّه يقول شعرًا!

ليس بشاعرٍ حقٍّ ذلك الذي يقدِّم الصخرة ولا يفجِّرها حياة! ... وليس بشاعرٍ حقٍّ ذلك الذي يغرف من نهر النثر كلامًا ككلِّ كلام!

هذا من حيث «الشكل».

وإذا تركنا الشكل وأخذنا الموضوع، فإنَّ المسألة تحتاج كذلك إلى بحثٍ آخر. ما هي المعاني الجديدة التي يجب أن يتناولها الشِّعر الجديد؟ ... وأقول «يجب» على الرغم منِّي؛ لأنَّي ضدَّ كلِّ إرغام في الفنِّ عامَّة وفي الشِّعر على الأخصِّ، ولكنَّ كلمة «يجب» أصبحت مُتداوَلة بين شُعراء الشباب وأدبائهم ونقَّادهم اليوم؛ فلا بأس من استعمالها في هذا المقام.

هل كلُّ موضوع تتناوله الصحف، ويتحدَّث به الناس في المجالس يصلُح للفنِّ الشِّعري؟ ... هل موضوعات النثر تصلُح أيضًا موضوعاتٍ للشِّعر؟!

قد يقال إنَّ الشِّعر فنٌّ إيحائيٌّ، وليس بالفنِّ الإخباري ... إنه مصباحٌ كمصباح علاء الدين يكشف لك عن كُنُوزك أنت المخبُوءَة في أعماق نفسك، ولكنَّه ليس بالكِيس المملوء الذي يُفرغ في خزائنك الخاوية!

وعلى هذا فالموضوع الذي يعالجه يجب أن يكون متَّفقًا مع طبيعة رسالته؛ أي أن يكون الموضوع شفَّافًا مُضيئًا عاليًا حتى تكون له قوة الكشف والإيحاء، لا أن يكون

موضوعًا ثقيلا إعلاميًّا يملأ الرأس بمادةٍ محدودة، ولا أن يكون أخبارًا وأحاديثَ وتواريخَ وحوادثَ مردَّدةً ممضوغةً ممَّا استهلكها النثر فلَمْ يبق للشِّعر إلا أن يضعها في «العُلَب نظمًا محفوظًا»!

كلُّ ذلك قد يقال، وكلُّ ذلك صحيح في جملته ... ولكنِّي في الفنِّ أفضِّل دائمًا الاعتماد على الفنَّان ... أكثر من الاعتماد على كلمة «يجب». إنَّ الفنَّان عندي هو الساحر الذي لا يُسأل عمَّا فعَلَ؛ لأنَّه ما دام فنَّانًا حقيقيًّا أصيلًا فإنَّه قديرٌ بسحره المُعجِز وحده أن يفعل كلَّ شيء. إنَّه قديرٌ بمواهبه أن يرتفع بالموضوع العادي إلى أسمى مراتب الشعر، في حين أنَّ الفنَّان الكاذب الرديء قد يهبط بالموضوع الشعري إلى المستوى السُّوقي أو الإخباري.

نخرج من ذلك كلِّه إلى أنَّ التجديد الحقيقي في شِعرنا العربي من حيث الشكل والموضوع، لن يكون تجديدًا حقيقيًّا وجديًّا إلا إذا قام على طاقةٍ كبيرة من الثقافة والموهبة والتجربة تستطيع أن تتحدَّى الصعوبات، وأن تقارعها وتنازلها؛ فما من فنٍّ يحتاجِ اليومَ إلى أشقِّ الجهود لإنهاضه مثل الشِّعر ... لا الشعر العربي وحده بل الشعر في كلِّ لغة ... حتى لقد قيل إنَّ عصرنا ليس عصر الشعر؛ لفرط ما يُلاقي الآن في كلِّ مكانٍ من ازورارٍ وفتور ... فقلَّما توجد في عواصم العالم المتحضِّر اليوم دارُ نشرٍ تُقبل على طبع ديوانِ شعر، أو دارِ تمثيلٍ — إلا في النادر — تُجازف بإخراج تمثيليَّةً شِعرية ... ذلك أنَّ الشاعر العظيم الذي يفرض عبقريته على عصره غيرُ موجودٍ الآن في العالم بالقوة أو الضخامة التي وُجد بها في القرون السابقة ... وكلُّ ما يوجد اليوم محاولاتٌ غامضة أو يائسة لتجديد الشِّعر في نطاقٍ ضيِّق من خاصَّة المثقَّفين المتحمِّسين ... فهل معنى ذلك أنَّ عصر الديمقراطية والشعبية هو النثر؟ ... أو معنى ذلك أنَّ هذا العصر الحديث لم يوفَّق بعدُ إلى الطابع الشِّعري الذي يناسبه ويمثِّله؟!

سؤالٌ لم يزَل بلا جواب ... وما من جوابٍ لمثل هذه الأسئلة إلا الظُّهور الفعلي لشاعرِ العصر المجدِّد الحقيقي.

متى يظهر؟ ... كيف يظهر؟ ... ما من أحدٍ يدري ... كان هذا العصر حقًّا محتاجًا إليه ... وعندما يظهر سيأتي معه بأسلوبه الجديد الذي يناسب عصره.

تحذير للشِّعر الجديد عند الشباب

قد يظنُّ البعض أنَّك إذا أردتَ أن تكون شاعرًا جديدًا؛ فما عليك إلا أن تأتي بموضوعٍ ممَّا تتناوله الصُّحف اليومية وتكتبه نثرًا، ثم تقسِّمه إلى جُمَل مختلفة في الطُّول والقِصر، وتضع كلَّ جملة في سطر، ولا بأس من أن يكون في السطر كلمةٌ واحدة أحيانًا أو كلمتان ... وحبَّذا لو كان بين السطر والسطر سجعةٌ أو سجعتان؛ ليقع من ذلك في الأذن ما يشبه الروي أو النغم.

كلَّا ... ليس هذا إلا الشِّعر الجديد الكاذب ... لا الشِّعر الحقيقي ... إنَّ الشِّعر الجديد يعجبني شخصيًّا أحيانًا نادرة، وإنِّي أرى أصحابه مجدِّدين حقًّا حتى وإن حطَّموا كلَّ القيود القديمة ... ذلك لأنَّهم شعراء ... شعراء بالهبة على الرغم من كلِّ شيء.

ولكني أريد أن أحذِّر ... فإن مظهر السهولة التي يكتب بها أحيانًا تغري كلَّ إنسان أن يكون شاعرًا ... ولم أفطن إلى هذا الخطر إلا يومَ قال بعضُهم بغير حيطة: إن الغرض من هذه الطريقة الجديدة هو التحرُّر من قيود الوزن والقافية التي كان يفرضها الشِّعر القديم؛ أيْ أنَّهم أرادوا اجتناب الصعوبة بإلغائها ... وإلغاء الصعوبات أمرٌ مستحسَنٌ دائمًا إلا في الفنِّ؛ لأنَّ الفنَّ صعبٌ ... ويجب أن يكون صعبًا دائمًا، حتى يكون فنًّا؛ لأنَّ الفنَّان هو الإنسان الذي يواجه الصَّعب، ويحوِّله إلى سهل ... تلك هي معجزته ... وعندما يُقال إنَّ الفن سحر أو هو نوعٌ من السِّحر، وقد كان كذلك في مطلع الأزمان، وكان يقوم به السَّحِرة والكهَّان؛ كان تأثيره في الناس مُنبعِثًا من أنَّه شيءٌ مُعجِز لا يستطيعه كلُّ شخص، ولكنَّه يلين ويسهل في يدِ الكاهن أو السَّاحر أو الفنَّان!

أول شرطٍ إذن هو أن يكون عسيرَ المنال، إلى أن يجيء الفنَّان فيُخضعه لقدرته وموهبته، ويصيِّره سهلًا بسيطًا سائغًا للناس ... إنَّ الفنَّ صخرةٌ صُلبة، على الفنَّان أن يفجِّر منها الماءَ الزُّلال ... وليس الفنُّ نهرًا جاريًا يغرف منه كلُّ عابرِ سبيلٍ بلا مجهود ... لا بد في الفنِّ إذن من صُعوباتٍ وعوائق وقيود ... وشرط الفنَّان أنْ ينتصر

على الرغم منها، لا أن ينتصر بإلغائها ... إنَّ اللاعب الماهر هو الذي يفوز مع احترامه لشروط اللعب، أمَّا إذا بدأ بإلغاء الشروط أو بتخفيف وطأتها ففيم الفوز إذن؟!

أفهَمُ أن يكون إلغاءُ الشروط أو القيود لأنَّها سخيفة، لا لأنَّها عسيرة، وفي هذه الحالة يجب أن تُوضع شروطٌ جديدةٌ للفنِّ الجديد، كان يشترط فيه الموسيقى والصورة والقوة الدافقة الدافعة، ولا حاجة بقافية بعد ذلك ... أمَّا مجرَّد الإلغاء تيسيرًا للفنَّان فهو مبدأُ خطرٍ على وجود الفنِّ ذاته ... حقيقةً إنَّ الفنَّ الجديد هو الذي يبدو سهلًا، ولكنَّه كما يقال السَّهل الممتنِع وليس السهل إطلاقًا ... هو السهل في نظَرِ الناس، لا في نظَرِ الفنَّان ... هو الذي يكابد فيه الفنَّان، ويعاني، ويجاهد، ليُبلغه بعد ذلك للناس هينًا مستساغًا، حتى ليخيَّل للناس جميعًا أنَّهم مستطيعون الإتيانَ بمثله دون مشقَّة ولا عَناء.

هذا هو السِّحر في الفنِّ ... هو الذي يخيِّل للناس أنَّ الأمر في متناول أيديهم؛ وهو في الحقيقة أبعدُ منالًا من النجوم ... إنَّ الفنَّ العظيم هو هذا: هو السهل للناس، والصعب للفنَّان.

الصِّدق أساس التجديد عند الشباب

رُوِّع ذاتَ يوم بعضُ أدباء الشباب وأطلقوا وصف «الإرهاب» على حركةٍ نقديَّة قام بها شبابٌ آخرَ من الأدباء غمروا الصُّحف والكتب فجأةً بدراساتٍ حشوها بكلمات مثل: «الأدب للحياة»، و«الأدب الوردي»، و«أدب البُورجوازية»، والسلبية والإيجابية والشكل والمضمون والعضوي وغير العضوي ... إلخ.

إلى أن ظهرتْ فجأةً أيضًا ترجماتٌ لبعض النشرات والمجلات الأدبية، التي تصدر في بعض الدول الأوروبية والآسيوية الشرقية، وإذا بالسرِّ ينكشف، وإذا بأصل هذه الكلمات يتَّضح، فاطمأن الفريق الأول من الشباب وبدأ يمدُّ رجلَيه ويتنفَّس الصُّعداء، واستخزى الفريق الثاني قليلًا ... وكادت تفتُر المعركة.

والسبب في اطمئنان الفريق الأول هو اعتقاده السابق أن تلك الأحكام الأدبية صدرت حقًّا عن موازين طبيعية، لا شكَّ في أنَّ أصالتها ومنبعها الطبيعي في أرضنا، فلما علم أخيرًا أنَّها موازينُ مستورَدة، وأنَّها مثارُ جدلٍ في بلادٍ أُخرى، بدأتْ تضعُف في نظره قيمةُ تلك الدراسات!

كما أنَّ السبب في استخزاء الفريق الثاني راجعٌ إلى أنَّه كان يُخفي — بمهارةٍ فائقة — مصدرَ موازينه ومصطلحاته؛ ليُلقي في الرُّوع أنَّها من اجتهاده الشخصي، مُوهِمًا أنَّها الموازين الطبيعية النهائية، التي يجب أن يقوم بها الأدب والفنُّ اليوم في بلادنا، بل والأمس أيضًا، بل كلُّ أدبٍ وفنٍّ ظَهَرَ على وجه البسيطة في أيِّ زمان ومكان، دون جدلٍ أو مناقشة ... فلمَّا انكشف الأمر، واتَّضح أنَّ كلَّ هذه المصطلحات والموازين قد تُرجمتْ ونُقلتْ عن آدابٍ أخرى، وتعبِّر عن شعوبٍ ودولٍ نبَتَ فيها ذلك نبتًا طبيعيًّا، شَعرَ الفريق الناقد أنَّ موقفه قد تحدَّد بما لا يُرضي أطماعه، وأنَّ الأدباء أخذوا ينظرون إليه على أنَّه مجرَّد مروِّج لمذهبٍ لا أكثر ولا أقلَّ!

هذه على وجه التقريب هي النتيجة الختامية لمعركةٍ أدبية شغلتْ أذهان الشباب في الأعوام الأخيرة.

وإنّه لممَّا يُؤسف له أن تنتهي المعركة أو تفتُر على هذا الوضع؛ فنحن في حاجةٍ إلى منشِّط في مجال الآراء والأفكار الأدبية والفنية.

وإنِّي لأعتقد أنَّ هذه المعركة كان من الممكن أن تنفع الأدب والفنَّ نفعًا قويًّا مستمرًّا، لو أنَّها وُضعتْ من البداية على أساسٍ آخر.

ما هو هذا الأساس؟

هو أولًا الصِّدق ... فما من بناءٍ يُبنى على الصِّدق إلا وكُتب له البقاء، في الأدب والفنِّ، وفي كلِّ شيء ... كلُّ حركاتنا الأدبية والفنية السابقة بُنيتْ على الصدق؛ ولذلك عاشتْ، وكانت هي دعامةَ نهضتنا الفكرية الحقيقية ... ومعنى الصِّدق في تلك الحركات أنَّها لم تكتُم شيئًا، ولم تُوهم أحدًا ... بل قالت بكلِّ بساطة: نحن في حاجةٍ إلى أفكار الغرب؛ لإضافة ما لم يوجدْ في تراثنا وسننقل ما نحتاج إليه في تجديدنا الأدبي والفني.

وتمَّ هذا النقل والترجمة في وضَح النهار، كما حدَثَ في كلِّ أمَّة وعصر. وكلُّ أدبٍ غيرنا نما وازدهر ودخله هواء جديد؛ لأنَّ كلَّ تجديد في فكرٍ ككلِّ تجديد في هواء غرفة، يحتاج إلى فتح النوافذ.

بهذا تفادَت الحركات السابقة ذلك الاستخزاء والخجل وردِّ الفعل، الذي يحدُث عادةً عند اكتشاف حقيقةٍ مخيفة مكتومة ... وما من ريبٍ في أنَّ حركة هذا الفريق من الشباب كانت تدعو إلى الاحترام، وكانت تتَّخذ مظهر الجديَّة والدوام، لو أنَّهم قالوا بكلِّ بساطة: «نحن في حاجةٍ إلى فتح النافذة الشرقية كما فُتحت النافذة الغربية.» ... وقاموا بالفعل ينقلون نقلًا أمينًا ويترجمون ترجمةً دقيقةً عيونَ الأدب والنقد من البلاد الشرقية، دون الْتواءٍ أو تزييفٍ أو إيهام.

ذلك أنَّه ما من عاقل يُنكر هذه الحقيقة، وهي أنَّ تجديد الحجرات والنهضات يحتاج إلى فتح النوافذ المغلقة في كلِّ الاتجاهات ... وقد حدث مثل هذا أيام النهضة الفكرية الإسلامية في عصر المأمون يوم نشطتْ حركات النقل والترجمة لآثار الفُرس والهند واليونان والرُّوم وغيرهم من مختلف الحضارات.

قد يُقال إنَّهم ما كانوا يملكون هذا الصِّدق في كلِّ الأوقات ... هذا صحيح ... ولذلك هم معذورون ... ولكن ...

ولكن العذر لا يعفيهم من مسئُوليتهم عن النتيجة ... نحن نعذرهم ... ولكننا نعذر أيضًا أولئك الذين استخفُّوا بهم بعد أن انكشف القناع.

هذا أولًا كما ذكرتُ، ولكنَّ هناك سببًا ثانيًا للأساس الخائر، ولعلَّه الأسرع في هدم الثقة، ذلك هو سوء التطبيق ... إذ ما كاد هذا الفريق من الشباب يقع على بعض نماذجَ في الأدب والفنِّ والدراسات من تلك البلاد الشرقية وغيرها، حتى استخفَّه الزهو وانطلق — في رعونة وعجَلَة — يؤلِّف وينقُد، ويُخرج في الشِّعر والقصة والبحوث نِتاجًا سريعًا أكثرُه مفتعَل، يحاول أن يطبِّق فيه الأفكار المستوردة على مجتمعٍ مختلف عن ذلك المجتمع الذي جاءت منه تلك الأفكار وعلى أدبٍ لا يماثل في تراثه وتاريخه ومراحل تطوُّره آداب تلك البلاد الأخرى.

كلُّ ذلك أفقَدَ تلك الحركة التي كان يصحُّ أن تكون حركةَ تجديد بالفعل، بعض مظاهر الجدية ... وبدلًا من أن تنتفع نهضتنا الفكرية والأدبية والفنية بمزايا النافذة الشرقية، كما انتفعتْ من قبل بمزايا النافذة الغربية، إذا بالأمر يكاد أن ينقلب إلى مهزلةٍ وإذا بالثقة تنهار شيئًا فشيئًا، وإذا بابتساماتِ السُّخرية أو الارتياب تعلو الشفاه قبل أن تمتدَّ الأيدي إلى كثيرٍ من هذه المؤلَّفات التي تظهر اليوم، في الشِّعر، أو القصة، أو النقد، لبعض هؤلاء الدَّاعين إلى هذا النوع من التجديد من أدباء الشباب!

إذن ... لقد عمل هذا الفريق، من حيث لا يريد ولا يتوقَّع، على الإضرار بحركته ... وليت الأمر يقِفُ عند هذا الحدِّ ... إذ لو أخذ الأمر على أنَّه سوء تطبيق؛ لانحصر الضَّرر في حدوده الضيِّقة. ولكنْ بعد انكشاف القناع، أصبح هذا الفريق في نظَرِ المثقفين ممثِّلًا أو مستوحيًا تلك الآداب الشرقية ... فما ذنب تلك الآداب ومعظمها من القمم والشوامخ، أن تُجرَّ هي الأخرى في غبار السخرية وعدم الثقة؟

ما الذي يُنقذ الموقف الآن؟

أعتقد أنَّه ما من منقذٍ غير الشروع في حركة تجديدٍ حقيقية، تدعو إلى الاحترام، وتقوم على العمل المُضني غيرِ المتعجِّل، وعلى الصبر الطويل والدرسٍ العميق ... يجب أن ندرس مجتمعنا دراسةً جديَّة، وأن ندرس أدبنا وفنَّنا دراسةً دقيقةً موضوعية، تُحيط بمراحل تطوُّره المتَّصلة بتطوُّر المجتمع، وأن يكون أدبنا الجديد والمتجدِّد نتيجةً طبيعية للتطور الفكري والاجتماعي، وأن يكون رائدنا في كلِّ ذلك الصِّدق والصراحة وسعة الأفق وحُسن التطبيق!

الشباب والشيطان

وقع ذلك الحديث الذي أرويه في ليلةٍ من ليالي الشتاء ... في منتصف الليل ... في تلك الساعة الرهيبة التي أجمعت الأساطير على أنَّ فيها يحدُث كلُّ جَلل من الأمر ... وكنت جالسًا إلى مكتبي أقرأ تحت نورٍ ضئيل، وقد تكدَّستْ أمامي كتبٌ يعلوها التراب، وكان الكتاب المفتوح بين يدي قصةً «فوست»، وكنت قد بلغتُ منها تلك الصفحات التي يجلس فيها العالِم الشيخ، بين كتبه في إحدى الليالي، وقد تهدَّل شَعره الأبيض على منكبيه وهو قانط من العلم، راغبٌ عن الحياة التي لم تمنحه من المعرفة ما كان يحسب أنَّ في مقدورها أنْ تُعطيه لبَشَر ... وقد جلس يُحصي على نفسه تلك الثمانين من الأعوام التي عاشها ... ماذا صنع فيها؟ ... وماذا ربح؟ ... إنه لم يعرف الشباب قَط، ولم يدخل قلبَه ذلك الفرحُ بالحياة قَط، ولم تُدرك نفسه معنى الطمأنينة والابتسام، حتى في ذلك الزمن الجميل يومَ كان خلَّانُه يقولون: «الحُب.» وكان هو يقول: «المعرفة!»

ولقد جدَّ حقيقةً في سبيلها، وأحاط بكلِّ ما سُمح لعقلِ إنسان أنْ يُحيط به؛ لقد أعطى العلمَ كلَّ حياته، والآن وقد أوشكت تلك الحياة أن تذهب ... الآن وهو في طريق الأوبة إلى ذلك المكان المجهول الذي جاء منه — لو أنَّ في الإمكان أن نسمِّيه مكانًا — ألَا تراه عائدًا إليه بصفقة المغبون؟!

أمَّا العلم فإنَّه الآن يسخر منه بقَدْر ما يسخر هو من نفسه؛ إذ أضاع من أجله حياةً كاملة، فيها أشياءُ كثيرةٌ غير العلم، إنَّه خارج من الحياة ولم يحمل زهرة، ولم يستنشق عبيرًا من ذلك البستان الفاتن بأشجاره وأنهاره وورده وغزلانه ... إنَّه لم يملأ قلبه بشيء، وإنَّها قد ملأتْ رأسه بكلام كثير سوف يأكله الدُّود — كما قال «هايني» — مع ما سوف يأكل من لحم تلك الجُمجمَة الكبيرة!

كلُّ هذه الخواطر كانت تدور في خلَدِ العالِم «فوست» وهو جالسٌ أمام كتاب في علم الفلك تحت نورٍ ضئيل، في حُجرةٍ من حجرات القرون الوسطى، ولم يكُن حوله غير كتبٍ مكدَّسة يعلوها التُّراب وغير سكونٍ مُطبِقٍ مخيف، ولم يكُن بالمكان أحدٌ!

ومع ذلك سَرت في جسم العالِم المتهدِّم رعدةٌ؛ إذ شَعرَ أنّه ليس وحده في المكان، فتردَّد قليلًا، ثم استدار بعينَيه المنطفئتَين يبحث في أركان الحُجرة، فلم يجِد أحدًا غير ظِلالِ نورِ المصباح، تتلاحق فوق الحائط القائم كالأشباح اللاعبة، فتملَّكه خوفٌ لم يدرِ سببه ... ووضَعَ وجهه في كتابه يحاول القراءة ويلتمس فيها هدوءَ الخاطر، وإذا صوتٌ هامسٌ يُلقي في أذنه: «فوست»! «فوست»! لقد سمعتُ ما دار في نفسك!

فجمُد الدمُ في عروق الشيخ، واستطرد الصوت: لا تخف! ... ألَا تعرف مَن أنا؟

لم يحر العالِم جوابًا، ولم يجرؤ على الحركة، وظلَّ في جلسته كتمثالٍ من الشمع!

فاستأنف الصوت: أنا الذي يستطيع أن يمنحك ما تطلب!

– هنا دبَّت القوة في نفس الشيخ، وزال عنه الخوف والْتفت إلى مكان الصوت فأبصَرَ وجهًا غريبَ الشحنة، لا يشبه وجوه البشر، يبتسم له ابتسامةً عجيبة. ولم يجد لهذا الوجه جسمًا، فقد كان محوطًا بالظَّلام. وتمالك الشيخ وتحامل، ثم قال في صوت واجف: من أنت؟

فنظر إليه الوجه نظرةً ثانيةً وأجاب: وهل يعنيك كثيرًا أن تعرف مَن أنا؟

– مَن أنت؟

– دائمًا تريد أن تعرف ... دائمًا حُب المعرفة! ... أيها الأحمق الفاني! ... أمَا يكفيك أنِّي أُعطيك ما تطلُب؟

كلَّ ما تطلب.

– مَن أنت؟

– الشيطان!

دُهش العالِم ونظَرَ إلى الوجه من جديد، فألفاه يبتسم تلك الابتسامة التي لا تتغيَّر، فردَّد في بطء، وهمس كأنما يخاطب نفسه: الشيطان!

ودنا الوجه قليلًا من الشيخ، وقال في نبرة لطيفة: أتخافني؟

لا تخَف ... انتظر.

وفي الحال أبصر الشيخ ذراعَين وقدمَين وبقايا جسم آدمي تأتي طائرة ة طائعة من أنحاء الحُجرة المختلفة، وتلتصق بالوجه حتى صار إنسانا، وتغيَّر الوجه فصار كوجوه البشر، ومد ذلك الإنسان يده إلى كرسي بجانب الشيخ، وجلس وهو يقول كالمخاطب لنفسه: «ها أنا ذا إنسان مثلك، ينبغي أن أكون إنسانًا مثلك حتى تفهمني، إنك أيها الإنسان لا ترى إلا من كان على صورتك! ... إني في خدمتك!»

هدأ رَوْع العالِم قليلًا، وتذكَّر ما كان فيه منذ لحظة من ضيق بنفسه وتبرُّم بحياته؛ فاهتزَّ في مقعده وصاح: أيها الشيطان! ... أعطني ... أعطني.

– اطلب ما شئت!

– الشباب!

لفظها الشيخ الفاني من أعماق قلبه المتداعي.

فأجاب الشيطان في تُؤدة: لك ما طلبتَ ... ولكن ماذا تُعطيني أنت في مقابل هذا؟ ... إنَّ الشيطان لا يُعطي لوجه الله!

فقال الشيخ من فوره: أُعطيك العلم ... كلَّ ذلك العلم الذي اكتنزتُه مدى ثمانين عامًا!

فقَهقَه الشيطان: لا حاجة بي إلى هذه البضاعة ... علمك لا ينفعني! ... إني أريد منك شيئًا آخر!

– ماذا؟

– نفسك!

فلم يتردد الشيخ: هي لك.

عندئذٍ أسرع الشيطان ومدَّ يده في الهواء، والْتقط قرطاسًا نشره تحت المصباح، وتناول ذراع الشيخ، ففزع الشيخ: ماذا تصنع؟

– لا تفزع من شيء! ... أريد قليلًا من دمك تكتُب لي به صكًّا على هذا القرطاس! ... هو عهد بيني وبينك: «أعطيك الشباب، وتعطيني نَفْسك!»

فأذعن الشيخ وكتب العهد بدمه، وتناول الشيطان العهد المكتوب، ورفع يده في الهواء، وعاد فوضعها على جسم الشيخ، فإذا شيخوخته تزول عنه، كما تزول الأوراق الذابلة عن الشجرة الفتية، وإذا العالِم الهِرِم قد انقلب فتًى في العشرين، جميل الطلعة، بسَّام المُحيَّا، مفعم النفس بالسرور، متوثِّب القلب للحُب!

* * *

لم أكد أنتهي إلى هذا الموقف من قصة «فوست» حتى طرحتُ الكتاب وهِمتُ في وادي التأمُّلات! ... كان الذي يملك عليَّ لبِّي ذلك.

الوقت هو حُب «المعرفة» ... كانت كلُّ أحلامي أن أفتح كلَّ صباح نافذة تطلُّ على عالَم مجهول من عوالم هذا الكون السابح في بِحار الأسرار ... كان مَن يكشف لعيني المستَطلِعة جديدًا هو الخليق عندي أن أُعطيه ما شاء من نفسي ... في تلك الليلة صِحتُ في الحُجرة: أيها الشيطان! ... أيها الشيطان! ... ابرز إليَّ، وخُذ منِّي ما تشاء، وأعطِني ما أريد!

ولم يبرز إليَّ بالطبع أحدٌ، ولم تنشقَّ الجدران، ولم تكُن الصيحة التي لفظتُها إلا صوتًا مدوِّيًا داخل نفسي، وهو في الحقيقة همسةٌ لم يبلغ صداها بابَ الحُجرة، على أنني لم ألبث أن رُحتُ في شِبه إغفاءة، نَصبَ فيها الخيالُ مسرحًا، وإذا الشيطان في ملابس «مفستو» الحمراء ويده على مقبض سيفه، والابتسامة الخبيثة الساخرة على شفتَيه، وهو ينظُر إليَّ قائلًا: أناديتَني؟

فهمستُ: نعم!

– ماذا تريد منِّي؟

– المعرفة!

فضحك ضحكةً عالية طويلة، اهتزَّت لها الريشة القائمة على قرنه، وقال: هل تُدرك مدى هذه الكلمة؟

ففطنتُ إلى مراده، وصِحتُ مستدركًا: نعم! ... نعم! ... أُدرك أنك أنت كذلك لا تحيط علمًا بمدى هذه الكلمة ... إني ما أردتُ منك المستحيل، وما قصدتُ أن تُعطيني. «المعرفة» ذاتها ... إنما أردتُ أن تمنحني «حُب المعرفة» ... أريد أن تمنحني تلك

النفس التي تعيش للمعرفة ... أريد أن تعطيني ما أخذتَ من «فوست» ... أعطِني «نفس فوست» التي أخذتَها منه ... أريد أن تكون لي نفسُ «فوست» أو نفس «جوته»!

– وماذا تعطيني أنت في مقابل هذا؟

– كلَّ ما تطلب.

– الشباب!

– هو لك!

قلتُها في غير تردُّد، فنظَرَ إلي «مفستو» نظرةً طويلة ... نظرةَ العجب أو الإشفاق — لو أنَّ الشيطان يُشفق أحيانًا — أو نظرةَ التاجر الماكر لصفقةٍ خاسرة وقعتْ من غرٍّ قاصر ... وقال: سوف تندم!

– أبدًا!

– أفهم أن يُبذل كلُّ غالٍ في سبيل «الشباب»، أمَّا أنَّ «الشباب» هو الذي يُبذل ... اسمع نُصحي أيها الفتى ... إني لم أعتَد إخلاصَ النُّصح لأحدٍ ... ولكني أقول لك: لا شيءَ في الوجود يعوِّض الشباب!

– المعرفة ... المعرفة ... المعرفة!

فضحك الشيطان ضحكةً صغيرةً هازئة، وقال كالمخاطِب لنفسه: كان «فوست» يقول هذا في صِباه!

فقلتُ في تحمُّسٍ أعمى: حُب المعرفة هو شبابُ العقل ... هو الشباب الأبدي ... هو السموُّ الإنساني الذي سجدتْ له الملائكة إلا أنت أيها المُتطاوِل على عرش فِكرنا النُّوراني!

– عرش فِكركم النوراني؟! ... ماذا أقول لهذا الفتى؟

– إني أعرفك وأبغضك ... إنك هنا على هذه الأرض لا عمل لك إلا أن تُطفئ هذه المصابيح العظيمة التي تزيِّن هاماتنا، إنَّ في يدك عصًا طويلة كتلك التي كان يحملها «عفاريت الليل» يُطفِئُون بها في مطلع الفجر مصابيحَ الغاز في الطُّرقات!

– ما أسخف مصابيح الغاز!

– نعم، ولقد ذهَبَ عهدها بظهور الكهرباء، واختفتْ معها «عفاريت الليل» بعِصِيِّها ... أنت أيضًا قد آن لك اليوم أن تختفي بسيفك وريشتك، فما من أحدٍ يرضى اليوم أن يبيع «مصباحه» من أجل شيء.

– لقد باع «فوست» مصباحه من أجل فتاة!

– كان ذلك مصباحًا من الغاز.

– من الغاز أو الكهرباء، النور هو دائمًا النور!

– يا عدوَّ النور! ... أعطِني النور وخُذ منِّي ما تشاء.

فقال الشيطان: OK.

وخلع قلنسوته ومسَحَ بها الأرض بين يديَّ إغراقًا في التحية، على طريقة فُرسان «إسكندر دوماس»، وتحرَّك للانصراف، فاستوقفتُه: ألَا نكتُب عقدًا؟

– لا ضرورة منك للعقود والعهود ... إنِّي واثقٌ بشرفك!

– ولكنِّي أنا ... معذرة ... إني لا أثق بشرفك.

– جرِّبني هذه المرة.

وانحنى لي انحناءةً كبيرة ثم اختفى!

* * *

مضى على تلك الليلة عشرات الأعوام الْتهمتُ فيها الكتب التهامًا، وأحطتُ بمختلف العلوم والفنون علمًا، وعشتُ مع الفلاسفة والأدباء والموسيقيين والمصوِّرين، وأحببتُ فيها «المعرفة» حبًّا كالجنون ... فلَمْ أكُن أُطيق صبرًا على الجهل بفرعٍ من فروعها، وكنتُ أحيانًا لا أملك من النقود غير الضروري لأكل بقيَّة الشهر وأُصادِف في واجهة الحانوت كتابًا أو كتابَين، فما أُحجم، وأدفع فيهما ما معي، وأتبلَّع طُول أيامي بمرَق الأرز ونقيع الشاي ... وذهب بي الجنون إلى حدِّ الرغبة في الاطلاع على ما لا لزوم لاطلاع أديبٍ عليه، فنظرتُ في كتب الفلك، والعلوم الروحانية، والرياضيات العليا.

وكانت أيامُ راحتي تُنفق في هياكل الفنِّ ومتاحف التاريخ الطبيعي ودُور الكتب والآثار.

وكانت لي جلساتٌ طويلة في رُكن قهوةٍ صغيرة مُنفرِدة آوي إليها وحيدًا أفكر سِت أو سبع ساعاتٍ متوالية في مسائل عويصة من مسائل الفلسفة المطلقة، أو قضايا الفكر، أو مشاكل العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكَمْ هدمتُ في رأسي مدنيَّات وأقمتُ بدلها حضاراتٍ خياليةً ذاتَ نُظم مثالية، على نحو ما فعل «أفلاطون» و«توماس مور» ولكَمْ أَلحدْتُ ثم آمنتُ، وضَللتُ ثم اهتديتُ، ولكَمْ كتبتُ ومزَّقت، ولكَمْ جهدتُ في سبيل تلك اللَّذة العليا التي حسبتُها غايةَ الإنسان التي ليست بعدها غاية، ولقد هِمتُ بالنور وعِشتُ حول النور حتى أحسستُ أنَّ جسمي يرقُّ، وأنَّ لنفسي أجنحةً كأجنحة الفراش ... ولقد صرت كالهواء، أو كالملائكة، أسهر سابحًا في أجواء الفكر، فوق كتاب مفتوح، تحت مصباحٍ مُضيء، حتى إذا جاء الصباح رقدتُ وهربتُ من الناس والضجيج ... إلى أن نبَّهتْني آخرَ الأمر خادمٌ عجوزٌ قائلة: حياتك هذه ليست حياة ... انظُر إلى وجهك في المرآة!

فنظرتُ مليًّا في مرآة خزانة الملابس فارتعتُ: ما كلُّ هذه التجاعيد حول عيني؟ ... وما هذا الظهر الذي تقوَّس وانحنى؟ ... وما هذا النُّحول والشُّحوب؟ ... أتُراني قد نسيت جسمي طول هذه الأعوام؟ ... أم تراه الشيطان قد تقاضاني الثمن دون أن أعلم؟ ... وهالني منظري وأنا أضع إصبعي على تلك الخطوط المخيفة على صفحة وجهي؛ كأنها صكٌّ بزوال زهرة الحياة إلى الأبد، فما تمالكتُ أن صِحتُ: الشباب! ... الشباب! ... لقد أَخَذَ الشبابَ!

البعث على يد الشباب

«إنَّ الشباب الخلَّاق هو الذي يبعث ماضيه حيًّا ... ويمدُّ أسلافه بدمٍ جديد يصلُح لإحيائهم في زمنٍ جديد ... هكذا ترمز تلك الفقرات من كتاب الموتى عِند المصريين القدماء»:

حوريس:

انهض، انهض يا أوزوريس!
أنا ولدك حوريس ...
جئتُ أعيد إليك الحياة،
جئتُ أجمع عظامك، وأربط عضلاتك،
وأصِلُ أعضاءك ...
أنا حوريس الذي تكون أباه ...
حوريس يُعطيك عيونًا لترى
وآذانًا لتسمع وأقدامًا لتسير
وسواعدَ لتعمل ...
ها هي ذي أعضاؤك صحيحة
وجسدك ينمو ...
ودماؤك تدبُّ في عروقك ...
إنَّ لك دائمًا قلبك الحقيقي،
قلبك الماضي!

أوزوريس الميت: إني حيٌّ، إني حيٌّ! ...

(كتاب الموتى)

و«حوريس» ليس إلا «الشباب»، يُعيد الحياة إلى ماضيه الميت ... نعم هو «الشباب» الذي يكون أباه الوطن ... وقد أعطاه بالفعل عيونًا يرى بها غابره العظيم في حريته، وحاضره الذليل في قيود الغرباء، وآذانًا يسمع بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاءُوا يستغلون رُقاده ويستلبون خيراته؛ كما أعطاه أقدامًا يسير بها كي يثبت لهم أنه حي، وسواعدَ يعمل بها على تشييد الصَّرح المهدوم! ... إنَّ أعضاء الوطن صحيحةٌ لم ينقص منها عضو، وها هو ذا جسده يتحرَّك وينمو، والدم يجري في شراييه، والشباب على رأسه يصيح: «إنِّ لك دائمًا قلبك الحقيقي ... قلبك الماضي!» ويخيَّل إليَّ أنِّي أسمع الوطن من كلِّ جانب يلبِّي النداء ويجيب الشباب الأبناء: «إنِّي حيٌّ، إني حيٌّ! ...» إنِّي دائمًا أومن بأنَّ مصر لا يمكن أن تموت؛ لأنَّ مصر منذ الأزل ظلَّت تعمل وتكدُّ آلاف السنين لهدفٍ واحد: مكافحة الموت ... ولقد فازتْ مصر ببُغيتها. وكلَّما ظنَّ الموت أنَّه انتصر؛ قام «حوريس» من أبنائها يصيح: «انهض، انهض أيها الوطن! ... إنَّ لك قلبك ... قلبك الحقيقي دائمًا ... قلبك الماضي ...»، وإذا الموت يتراجع أمام صوتٍ مدوٍّ من أعماق الوطن:

«إني حيٌّ ... إني حيٌّ!»

قضية القرن الحادي والعشرين

١

زارني منذ عهدٍ ليس بالبعيد صحفيٌّ أمريكيٌّ، قال إنَّه يطوف ببلادٍ كثيرة يتحرَّى عن سبب كراهية العالَم لأمريكا ... وتأمَّلتُه مليًّا وهو يُخرج من جيبه دفترًا صغيرًا ليدوِّن فيه إجابتي ... كان شابًّا دون الأربعين، طويل القامة، عريض المنكبين، كأبطال السينما الأمريكية ... وكنت أظنُّ أنَّ مِثل هؤلاء الرجال لا يُوجدون إلا في هذه الأيام ... ولكن ها أنا ذا أراهم بلحمهم وشحمهم بين رجال الصحافة ... رجالًا ينبتون في أرضٍ جديدة، كما تنبت عندنا سيقان الذرة الفارغة «زرع بدري» في الأرض الخصيبة ... لم أجعله ينتظر كثيرًا حتى أفكِّر؛ فالإجابة لم تكُن محتاجة إلى تفكير، وحرب فيتنام ببشاعتها ماثلةٌ للأذهان ... قلتُ له على الفور إنَّ العالم يكره أمريكا؛ لأنه يراها المسئولة اليوم عن إشعال الحروب ... حيث ذهبتَ في آسيا وأفريقيا، في الشرق الأقصى والشرق الأوسط تجِدُ علبة الثِّقاب في أصابع أمريكا تلعب بها أو تحلُّ بها مشكلاتها تاركةً الدُّخان يلبد سماء السلام.

فدوَّن في دفتره ذلك، ثم رفع رأسه قائلًا لي: هل تعتقد أنَّ في إمكان أمريكا حلَّ مشكلاتها بغير هذه الحروب؟

قلتُ له باقتناعٍ واضح: هذه رسالتها.

وأدهشتْه مثاليةُ الكلمة ووقعتْ من نفسه موقعًا حسنًا ... فدوَّنها بسرعة ... ثم الْتفت إليَّ يقول: هذا شيءٌ رائع ... ولكن ... من الناحية العملية.

قلت له: إني أتكلَّم من الناحية العملية ... إنَّ رسالة السلام في يد الدولة القوية؛ هي خير حلٍّ عملي لكلِّ المشكلات، وإذا أرادت دولةٌ قوية أن تكون محبوبةً وأن تسيطر

حقًا على قلوب العالم فلتترك علبة الثقاب وتطلق حمامة السلام ... هذه الحمامة ذات الجناحَين: جناح اسمه العدل، وجناح اسمه الحرية.

– شكرًا!

قالها وهو يطوي دفتره ويضعه في جيبه وينهض مودِّعًا ... وانصرف ... وخِلت الأمر انتهى عند هذا الحدِّ ... ومضى يومان وفي اليوم الثالث عاد ليقول إنه جعل يفكِّر طويلًا في رسالة الدولة القوية الكبيرة في عصرنا الحاضر ومسئوليتها أمام البشرية ... وإنَّه يريد أن يأخذ الموضوع مأخذ الجدِّ، ويطلب مساعدتي في ذلك ... فقلت له: مساعدتك؟! في ماذا؟

– في تحقيق هذه الرسالة.

ولمَّا رأى دهشتي سارَعَ يقول: طبعًا الموضوع ليس بهذه السهولة ... ودولةٌ كبيرة مثل أمريكا ليست شخصًا واحدًا يمكن التفاهم معه ... إنها تركيبٌ متناقضٌ ومعقَّد غايةَ التعقيد ... هل زُرتَ أمريكا؟

قلت له: لا ... ولا أريد.

– بل يجب أن تريد ... وخاصة الآن ... اسمع ... ما قولك لو اصطحبتُك إلى هناك؟ ... هذا لن يكلِّفك شيئًا ... سأكون أنا المتكفِّل بك في الذهاب والإياب ... من الباب للباب ... ولا تتعلَّل بشيخوختك وصحتك، كما قيل لي، فسأوفِّر لك كلَّ أسباب الراحة ... ولي قريبٌ هو أحد مستشاري الرئيس الأمريكي ... وفي إمكانه أن يدبِّر لك زيارةً للبيت الأبيض لتناقش بنفسك الرئيس في هذا الموضوع الهام.

– ابعد عنِّي! ... أرجوك!

قلتُها بلطفٍ وابتسام، ولكنْ في غمرةٍ حاسمة ... فلَمْ ييأس وأصرَّ وقال محاولًا إقناعي: هذه رسالتك أيضًا ... أنت الذي تتحدَّث عن الرسالات ... إنها ليست زيارة للسياحة ولا للنزهة ... العالَم القلِقُ اليوم في حاجةٍ إلى مفكِّرين مؤمنين ... فإذا كنت مؤمنًا حقًّا برسالةٍ ما فابذل من أجلها بعض الجهد والفرصة مواتية ... هيا أعطني جواز سفرك وأنا أعدُّ لك كلَّ شيء وأحجز لك معي مكانًا في الطائرة.

فلم أتمالك من الضحك: بهذه السرعة؟! هل أنا حقيبةٌ تُحمل هكذا؟!

– ولماذا الإبطاء؟

– أتخشى على العالم المريض أن يموت قبل وصولنا؟! ثم مَن أكون أنا في هذا كلِّه؟! ... مَن يسمعك يظنُّ أني طبيب يطير بالدواء!

كلُّ شخصٍ مؤمن بفكرةٍ صالحة هو طبيبٌ إلى حدٍّ ما ... هيَّا بنا لا تضيِّع الوقت إنك لن تخسرَ شيئًا بهذه الرحلة ... وقد تستطيع عينك الجديدة أن تُبصر في لمحةٍ واحدة كلَّ مستقبل مجتمعنا.

أطرقتُ قليلًا أفكِّر ثم قلت: لن أستطيع المُكث هناك أكثر من أسبوعٍ واحد.

– وهذا يكفي.

– ولا داعي لزيارة البيت الأبيض ... أنا لا أقابل الحكَّام.

– لك ما تريد.

وبسرعةٍ وجدتُ نفسي مدفوعًا دفعًا إلى هذه الرحلة ... وجهَّز كلَّ شيءٍ، وتمَّ في طَرفة عين ... وما شعرتُ إلا وأنا في المطار ... ثم وأنا في الجوِّ ... والصحفي اللعين إلى جواري يبتسم وأنا غير مصدِّق لمَا أنا فيه ... كيف حدَثَ كلُّ ذلك هكذا؟! ومرَّت المُضيفة ببعض الحلوى فاعتذرتُ ... وهنا تذكَّرت أنَّ السكريات وبعض أطعمة الطائرات لن تناسب صحتي ... ولكنْ فات الأوان ولن يُجدي التفكير في ذلك. ومدَّ صاحبي الصحفي يده إلى قطعة حلوى وهو يسدِّد نظرةً متأمِّلة إلى وجه المضيفة الحسناء ويقول: عيناها جميلتان!

ولم ألتفتْ إليه ... وتظاهرتُ بالنوم ... فقد ساء مزاجي فجأةً وغمرتْني كآبةٌ لانتزاعي بهذه الطريقة من بلدي وبيتي وعاداتي لأجد نفسي في رحلةٍ مجنونة إلى هدفٍ غير واضح المعالم ... كيف استطاع إقناعي؟! ليست هذه أولَ مرَّة أدعى فيها لزيارة بلاده وغيرها من البلاد ... كنت أكسل ولا أتحمَّس ... فما الذي حدَثَ هذه المرة؟! أتراني وقعتُ في شرَك كلمةٍ قُلتُها: رسالتنا؟! الآن أنا وحدي أُحادث نفسي ولا أحدَ يسمع صوتي الداخلي: هل كنتُ جادًّا وأنا ألفظ هذه الكليَّات الكبيرة؟! ... بالطبع أنا جادٌّ ولكنْ ... ليس إلى الحدِّ الذي أتجشَّم من أجله المتاعب! ... في مثل سنِّي ... يا للخجل! ... الحمد لله أنَّ أحدًا لا يسمعني ... ومع ذلك أعاتب نفسي وقد قُمت بالفعل ألبِّي النداء ... لكنْ أيُّ نداء؟! ومَن أدراني أنها ليست أكثر من زيارة صحفية كأيِّ زيارة صحفية أخرى مما يدعى إليها الصحفيون والكتاب؟ ... ولعلَّ هذا الصحفي الشاب سبق أن دعا غيري بمثل هذه الأساليب؟! كلٌّ بالأسلوب الذي يناسبه ويُغريه؟!

إذا كان الأمر كذلك وقد وقع الفأس في الرأس؛ فلن أكتب حرفًا عن هذه الزيارة ولا عن هذه البلاد ... صحفيٌّ شابٌّ يضحك من كاتبٍ في السبعين ويجَرجِره معه من طائرةٍ إلى طائرة!

وعندما وصلتُ في تفكيري الداخلي إلى هذا الحدِّ، بدت لي الرحلة جحيمًا والصحفي الجالس بجواري شيطانًا ... فلَمْ أُطِق النظر إليه وزاد همِّي وغمِّي وتمنيتُ لو عُدتُ أدراجي ودخلتُ بيتي وارتميتُ على فراشي المُريح ... ولكنَّ الطائرة في الجوِّ ولم يبقَ لي غير الندم والترنُّم بالمثل: «الحقُّ على مَن يسمع كلام العيال.»

* * *

لبثتُ طوال الرحلة قليلَ الكلام مع الصحفي ... وكلما لمحتُ منه رغبةً في الحديث تظاهرتُ بالنوم. فكان هو يلجأ إلى القراءة أحيانًا ويُغازل المُضيفات أحيانًا أخرى ... إلى أن اقتربَت الرحلة من نهايتها فهتف بي قائلًا: نحن الآن نطير فوق تمثال الحرية ... فنهضتُ في الحال أشرئبُّ بعُنقي لأنظر من النافذة ... ولكن الوقت كان ليلًا فلَمْ أُبصر شيئًا ... ورجعت بذاكرتي إلى ما قرأتُه عن هذا التمثال الضخم ... لقد كان هديَّة من فرنسا إلى الولايات المتحدة ... صنعه المثَّال الفرنسي «بارتولدي» وأسماه «الحرية تُضيء العالم» ... ووضعته الولايات المتحدة في ميناء نيويورك عام ١٨٨٦م ... نعم، لا شكَّ أنَّ حُسن الظنِّ بأمريكا في ذلك التاريخ كان كبيرًا ... وكان العالم يتوقَّع لها أن تُضيء الحرية منها على العالم حقًّا! ... وهبطت الطائرة أخيرًا واستقرَّت على أرض المطار ... ثم لم يمضِ قليل حتى كنتُ في الفندق الذي اختاره الصحفي لنزولي بمدينة نيويورك ... كنت متعبًا فآثرتُ المُضيَّ إلى حُجرتي توًّا ... وطلبتُ فيها عشاءً خفيفًا وأويتُ إلى فراشي ... ونهضت مبكرا في الصباح وطلبتُ فنجانًا من الشاي وارتديتُ ثيابي ونزلتُ إلى بهوِ الفندق أنتظر صاحبي الصحفي لنضع برنامج الزيارة ونبدأ يومنا الأول ... وإذا نظري يقع على صُحف الصَّباح في أيدي بعض النُّزلاء وبها مانشيت كبير: «تمثال الحرية»! وخيِّل إليَّ من تهامس وحديث من حولي أني أسمع كلمة «اختفاء أو خطف» أو ما يشبه ذلك ... فقلتُ في نفسي هذا مستحيل؛ فتمثال الحرية ليس إبرةً حتى تختفي، وليس لعبةً حتى تُخطف، لا بد في الأمر خطأ ... ففهمي للإنجليزية ولا سيَّما في أمريكا ممَّا يحتمل معه سوء التفسير ... ولم يلبث صاحبنا الصحفي أنْ ظهَرَ وفي يده إحدى صحف الصباح وهو منهمِك في القراءة ...

فما إن أبصرني حتى أقبَلَ عليَّ وحيَّاني وبادرني بقوله وهو يُشير إلى الصحيفة: تصوَّر ... تمثال الحرية.

– ماذا؟ ... اختفى؟!

قلتُها بلهجةٍ أدهشتْه ... ولكنَّه استطرد يقول: يظهر أنَّها قضية الموسم! ... لقد تغيبتُ عن أمريكا في تجوالي حول العالم نحو ثلاثة شهور لأعود فأجد هذه القضية الغريبة!

– قُل لي في كلمتَين؛ ما هو الموضوع!

– خُذ اقرأ بنفسك!

فتناولتُ الجريدة من يده وتصفَّحتُ العناوين؛ لأعرف بسرعةٍ ما هي الحكاية، كان بالصفحة أربع صُور فوتوغرافية كبيرة لرجلَين وامرأتَين في سنِّ الثلاثين، أو أقلَّ قليلًا ... تُحيط بهم صورةٌ كبيرة لتمثال الحرية ... ثم عنوان ببنطٍ كبير: «مساجلة عنيفة بين المدَّعي العام وهيئة الدفاع حول وصف الجريمة» ... ثم عنوان آخر: «اليوم تُصدر المحكمة قرارها بتحديد التُّهمة» ... ثم عنوان أخير: «هل المتَّهمون مجرمون أو مُصلِحون؟» ... ولم أستمرَّ في القراءة فقد شعرتُ بشيء يجذبني إلى هذه القضية ... فقلت لصاحبي على الفور: هل نستطيع أن نشاهد هذه المحاكمة؟

– إذا أردتَ ... وما دمتُ معك فكلُّ شيءٍ سهل.

– هيا بنا إذن!

* * *

وانطلقنا إلى دار المحكمة ... ولم يكن صاحبي الصحفي في حاجة إلى إظهار بطاقةٍ شخصية، فقد كان معروفًا هناك ... وسرعان ما فُتحت لنا الأبواب ... ووجدنا أنفسنا داخل قاعة الجلسة ... لم يكُن القاضي قد ظهَرَ، فمقعده لم يزَل خاليًا ... ولكنِ المحلَّفين كانوا في أماكنهم ... وكذلك الجمهور في مقاعده ... وقد أجلسونا في صفٍّ من صفوفه ... ونظرتُ إلى مكان المتَّهمين فوجدتُ الأربعة الذين طالعتُ صورهم في الصحف، يتحدَّث إليهم رجلان أدركتُ أنهما من هيئة الدفاع ... ولم تمضِ لحظةٌ حتى دخَلَ القاضي إلى القاعة واتَّخذ مقعده بجوار العَلَم الأمريكي وافتتح الجلسة بتلخيص وجيز لمَا حدَثَ في الجلسة السابقة من خلافٍ حول وصْفِ التُّهمة وما يُنتظر لهذا

الخلاف من استمرار ... وهو يقترح توفيرًا للوقت أن تشرع المحكمةَ في سماع الشهود وعرض وقائع الدعوى وتقديم أدلة الإثبات والنفي، ومن بلورة كلِّ ذلك يمكن في النهاية تحديدُ التُّهمة ... وهنا نهض أحدُ المحامين يقول: في هذه الحالة يكون المتَّهمون محتجزين في غير تُهمة ... ولذلك أُطالب بالإفراج عنهم فورًا إلى حين بلورة الوقائع والأدلة واستخراج التُّهمة منها وتحديد وصفها.

فقام المدَّعي العام يقول: أرفض الإفراج عنهم؛ لأنَّهم ضُبطوا متلبِّسين.

فقال المحامي: متلبِّسين بماذا؟

– بالتخريب.

– هل هناك دليلٌ على أنَّ نية التخريب قامت في أذهانهم؟

– وما الذي قام في أذهانهم؟

– نقل التمثال من مكانه ... كما جاء في أقوالهم.

– إذن هي سرقة.

– لا يمكن تطبيق وصف السرقة؛ لأنَّ نية الامتلاك غير قائمة.

– وما هو المكان الذي أرادوا نقل التمثال إليه؟

– مكان يلائم معناه ... معنى التمثال هو «الحرية تُضيء العالم» ... وهم يريدون نقله إلى مكان تُضيء فيه الحرية.

وهنا تدخَّل القاضي قائلًا: بهذه الطريقة سنظلُّ في مساجلاتٍ لن تنتهي ... وأنا مُضطَر إلى حسْمِ الخِلاف واعتبار التُّهمة جريمةَ تخريب لممتلكات الدولة ... وعلى الدفاع أن يُثبت وجهة نظره المخالِفة ... هذا قراري ... ولْنبدأ الآن في سماع شهود الإثبات.

وابتسم المدَّعي العام ابتسامةَ الفوز ... وقام المحامي يقول للقاضي: إذا سمحتم بتأجيل الجلسة بضع ساعات؛ لأنَّ هذا القرار جاء مفاجئًا لنا.

فوافق القاضي على رفع الجلسة على أن تُعقد بعد الظُّهر ... ونهض منصرفًا وانفضَّ الجمهور ... وخرجنا — أنا والصحفي — نتناول طعام الغداء في مطعمٍ

بجوار دار المحكمة، بعد أن علِمَ أنِّي أنوي العودة إلى الجلسة لمتابعة القضية ... فاهتمامي بها أمرٌ طبيعي ... وقد أدرك هو كما أدركت أنَّ وراء هذه القضية قضيةً أُخرى أكبرَ وأعمق ... وفرغنا من شُرب القهوة ونظرنا في الساعة ثم نهضنا عائدين إلى المحكمة، واتَّخذنا مقاعدنا، وعادت الجلسة إلى الانعقاد ... وأمَرَ القاضي بإحضار الشاهد الأول ... فجاء رَجلٌ يمشي بخطواتٍ عسكرية ... أحد حرَّاس مبنى التمثال ... حلف اليمين ثم جلس في مقعد الشهادة ... وسأله القاضي عن معلوماته فقال: ليلة الحادث كانت نوبتي في الحراسة ... في نحو الثالثة بعد منتصف الليل سمعتُ في الماء صوتَ محرِّك زورقٍ بخاري ... فسدَّدتُ مِنظاري المقرِّب؛ فرأيتُ في الزورق رَجلًا في ثوبِ الاستحمام، ولكنْ بعد لحظة ظهَرَ من الماء رَجلٌ آخر في ثوبِ الغطس، ثم تبعتْه سيدتان في ثياب الغطس أيضًا وهُمْ يمسكون بحبلٍ طويل ... وصعد الجميع إلى الزورق ... فخامرني شكٌّ في الأمر وصِحتُ بهم ... وأطلقتُ عيارًا في الهواء من مسدسي لأمنع فرارهم ... وجاء زملائي وفتَّشنا الزورق فوجدنا به آلةَ نسْفٍ ... ثم جئنا بالغطَّاسين لنتتبع طرَف الحبل الطويل فعثرنا على أصابع الديناميت معلَّقة بأسفل الصخرة التي يقوم عليها مبنى التمثال.

وهنا طلب إليه القاضي أن يدلَّه على المتَّهمين؛ فأشار إليهم ... ثم أراه المضبوطات من أصابع الديناميت والحبال وآلة النسف فتعرَّف عليها ... وترك القاضي الشاهد للمدَّعي العام كي يستجوبه، فسأله: ما هو الغرض الذي فهمتَه من عمل المتَّهمين؟

– نسْفُ التمثال طبعًا.

– وما الذي فهمتَه من إدارة محرِّك الزورق؟

– أنَّ المتَّهمين كانوا يستعدُّون للفرار بالزورق بمجرد أن يتمَّ وجودهم فيه والضغط على زِر النَّسْف.

– كان من الممكن إذن أن تتمَّ الكارثة إن لم تسمع أنت صوتَ المحرِّك؟

– بالتأكيد.

– شكرًا.

والتفت المدَّعي العام نحو المحلفين وقال: واضح كما ترون أنَّ المتهمين كانوا يقصدون نسف التمثال وقد نفذوا خطتهم فعلًا ... وكاد يتمُّ لهم ما دبَّروه ... فلا سبيل غير ذلك ... وترك مكانه لهيئة الدفاع تستجوب الشاهد بدورها ... فقام أحدُ المحامين يسأله: في أيِّ مكانٍ بالضبط علَّق المتَّهمون أصابع الديناميت؟

– في أسفل الصخرة ... تحت الماء.

– هذا القَدْر من الديناميت يكفي لإحداث ضررٍ في أسفل الصخرة تحت الماء ... ولكنْ هل هو يكفي لتخريب التمثال نفسه وطوله فوق الماء ٩٣ مترًا؟

– لا أدري ... لستُ خبيرًا.

– مبنى التمثال والصعود داخله ممكنٌ للزُّوار ... ألَمْ يكُن من الممكن للمتَّهمين ترك المتفجِّرات أو إخفاء قنبلة زمنية داخله؟

– توجد حراسةٌ مشدَّدة.

– وهل هذا يمنع المحاولة لمَن يريد؟

– لا يمنع بالطبع.

– إذن هو ممكن لو أرادوا؟

– نعم.

– لماذا أطلقتَ الرصاص في الهواء؟

– لأمنعهم من الفرار.

– هل ظهَرَ منهم ما يدلُّ على رغبتهم في الفرار أو أنَّك أنت توهَّمتَ ذلك؟

– صوت المحرِّك الدائر دلَّني على أنَّ زورقهم على وشكِ الانطلاق.

– هل سمعتَ صوت المحرِّك عند اقتراب الزورق من مبنى التمثال عندما جاءُوا؟

– لا؛ لأنِّي كنتُ في مكانٍ بعيد.

– هل أنت متأكِّد من أنَّ المحرِّك كان ساكنًا، وأنَّه أُدير استعدادًا للانطلاق؟

– أنا سمعتُ صوتَه يدور فقط.

– أليس من الجائز أنّه كان دائرًا طول الوقت؟

– جائز.

– لماذا حكمتَ إذن أنَّهم كانوا يريدون الفرار؟

– من باب الاحتياط.

– من جانبك أنت ... لكن من جانبهم هُم هل صدرتْ منهم حركةٌ تدلُّ على رغبتهم في الهرب؟

– لا.

– شكرًا.

وهنا قال المدَّعي العام في لهجةٍ أقرب إلى السُّخرية الخفيفة المغطاة: ما الذي يريد الدفاع أن يصِلَ إليه؟

فردَّ المحامي قائلًا: أريد أن أنفي عن موكِّلينا نيَّة الفرار؛ لأنَّهم لم يرتكبوا شيئًا يدخل في باب الجريمة ... ولم يقطع الشاهد بأنَّ الديناميت الموضوع أسفل الصخرة كان كافيًا لتخريب التمثال ... وأنه ...

فقَاطَعه المدَّعي بقوله: هذه مسائل من اختصاص الخبير ... وهو موجودٌ الآن في المحكمة، وأرجو من سيدي القاضي أن يأمر باستدعائه.

أمر القاضي باستدعاء الخبير ... فحضر وحلف اليمين وجلس في كرسي الشهادة ... وعُرضت عليه أدوات التدمير ففحصها وسأله المدَّعي العام: هل عاينت المكان الذي وضع فيه الديناميت؟

فأجاب: نعم ... وهو على عمق عشرة أمتار من سطح البحر.

– ما مدى الخسائر التي كان يمكن أن يُحدثها هذا الديناميت في مبنى التمثال؟

– لا يمكن تقدير مدى التلف بالضبط ... ولكن الانفجار كان ولا شك سيُحدث اهتزازًا خطيرًا في المبنى.

– أليس من المحتمَل أن يؤدِّي الاهتزاز الخطير إلى سقوط التمثال؟

– كل شيء في هذه الحالة محتمَل.

– ما الذي تستنتجه من هدف هذا الفعل؟

– التخريب طبعًا.

– ألَا يمكن أن يكون لهذا الفعل هدف آخر؛ كنقل التمثال من مكانٍ إلى مكان مثلًا؟

– نقله من الوسائل الصبيانية؟! ... إنَّها نُكتةٌ مضحكة!

– إذن لا يمكن أن يخطر على بال أحدٍ جديَّة هذا الافتراض، وخاصة ممَّن هُم على قدْرٍ كبير من التعليم والثقافة شأن هؤلاء المتَّهمين الذين تخرَّجوا في جامعة هارفارد بأعلَى الدرجات!

– أعتقد أنَّ التفكير في ذلك على هذا النحو لا يمكن أن يكون جديًّا؛ لأنَّ مشروع نقل هذا التمثال من مكانه هو عملية فنية معقَّدة لا يستطيع تنفيذها إلا الشركات الهندسية الكبرى.

واستدار المدعي العام وواجه المحلَّفين قائلًا: أظنُّ أنَّ حضراتكم قد اقتنعتم الآن أنَّه لا يمكن أن يكون هناك هدفٌ آخر لفعل هؤلاء المتَّهمين سوى التخريب.

وقام أحد المحامين يسأل الشاهد: هل يمكن حدوث التخريب بمجرَّد وضع الديناميت؟

– لم أفهم السؤال.

– هل هذا الديناميت يُحدث الانفجار بمجرد وضعه كما هو الحال في القنبلة الزمنية؟

– لا بالطبع ... لا بد من الضغط على الآلة الناسفة.

– وإذا لم يكُن هناك ضغطٌ أو أيُّ نيةٍ أو رغبةٍ في الضغط على الآلة الناسفة؟

– في هذه الحالة ...

وهنا هبَّ المدَّعي العام يقول: ما هذا الكلام؟ يريد الدِّفاع أن يُفهمنا أن المتَّهمين وضعوا الديناميت، ثم جلسوا أمام آلة النسف في انتظار وصول الحرَّاس ليقبضوا عليهم؟

فردَّ المحامي على الفور: هذا بالضبط ما حدَثَ.

والْتفت المحامي إلى المحلَّفين وقال: لو كان عند موكِّلينا نيَّة التخريب لضغطوا في الحال على آلة النسف قبل وصول الحرَّاس ... لقد كان أمامهم الوقت الكافي.

فقال المدَّعي متهكِّمًا: وما هي النية التي كانت عند موكِّليكم؟ ... نقلُ التمثال من مكانٍ إلى مكان؟!

فردَّ المحامي بهدوء: مسألةُ نقل التمثال ليس المقصود بها النقل المادي، إنما هو النقل الرمزيُّ والمعنويُّ ... نحن أمام جيلٍ جديدٍ طاهرٍ مثقَّفٍ صريحٍ يرى تمثال «الحرية تُضيء العالم» في وضعه هذا ومجتمعه هذا كذبًا وزيفًا!

فقال المدَّعي: هذا الجيل الطاهر البريء يلجأ — مع ذلك اليوم — إلى التخريب.

وعندئذٍ علَتْ صيحةُ احتجاج من المتَّهمين ودقَّ القاضي بمِطرقته يطلب السكوت ... وتهامس المتَّهمون مع هيئة دفاعهم لحظةً، وبَعدَها نهَضَ أحدُ المحامين عنهم واتَّجه إلى القاضي قائلًا: إننا بالاتفاق مع موكِّلينا نطلب من المحكمة سماعَ أقوالهم كشُهود.

فالْتفت القاضي إلى المدَّعي العام سائلًا: هل لدى الادعاء مانع؟

فأجاب: لا ... لا مانع.

فأصدر القاضي قراره: إذن تُرفع الجلسة على أن تُعقد في العاشرة من صباح الغد لسماع المتَّهمين كشهود.

ونهض وغادر منصَّته ... ونهضنا جميعًا وخرجنا من القاعة إلى الطريق.

* * *

وسألني صاحبي الصحفي عن برنامج الليلة ... وعرَضَ عليَّ طائفة من الاقتراحات ... ولكنِّي لم أتحمَّس لها ... فالسَّهر يُرهقني ... وأنا لم أتجشَّم السفر إلى هنا لأشاهد مباهج الليل، ولا لغرض السياحة في المسارح والنوادي والحفلات، ولكنْ للسياحة داخل الآراء والأفكار والعقليات ... ولقد بدأتُ أستشفُّ من هذه القضية أنها المطلب والبُغية، وأنَّها تتفتَّح قليلًا قليلًا عن صميم ما نبحث عنه ونريد معرفته من كُنه هذا المجتمع، وما يتخمَّر تحته ويفور من مشكلات العصر ... فلْنتفرغ إذن لهذه القضية ... ويحسُن أن أنام مبكِّرًا لأصحو نشيطًا متنبِّهًا ... وتناولتُ بعض الطعام

ومشيتُ مع صاحبي قليلا للرياضة قبل الرقاد ... وأضواء الحوانيت والملاهي في شوارع نيويورك تتفجَّر من لافتاتٍ ساطعة بألوانٍ مختلفة، تتوهَّج بالومضات السريعة، تريد أن تخطف الأبصار قبل أن تخطف ما في الجيوب من كدح النهار ... مجتمع الاستهلاك الذي يقولون عنه ... ساقيةٌ بشريَّة ضخمة تدور طول يومها لتصبَّ عرَقها في مجرى نبعها ... هكذا إلى غير نهاية ... وهذا النبع الدائم الذي لا ينضب مَعينه أين تذهب حصيلته؟! ... هنا المسألة! ... وعُدت إلى فندقي وقرأتُ قليلًا في فِراشي إلى أن غلبني النُّعاس فنِمتُ ... ونهضتُ في الصباح ... فوجدتُ الصحف قد نشرتْ بحروفٍ كبيرة خبَرَ سماع المتَّهمين كشهود في جلسة اليوم ... وما إن اقتربَت الساعة من العاشرة حتى كنتُ أنا وصاحبي الصحفي في المحكمة ... واتَّخذ الجميع أماكنهم في القاعة ... ودخَلَ القاضي وبدأت الجلسةُ المهمَّة التي ترقَّبها الناس ... ونُودي على المتَّهَم الأول ليجلس في مقعد الشهادة، ودعاه القاضي إلى الإدلاء بأقواله.

فقال: نحن الأربعة منذ كنَّا ندرس في جامعة هارفارد أنا وزميلي، كنَّا في قسمٍ واحد من كلية الاقتصاد ... والزميلتان كانتا في قسمٍ آخر للعلوم الإنسانية والفلسفة ... ولم نلتقِ بها إلا في النادي حول حوض السباحة نتسَابق جميعًا في القفز والغوص في الماء ... وبعد أن تخرَّجنا بامتياز استطعنا أن نحصل على وظائف طيِّبة في الشركات الكبرى ... ثم طُلبنا في حرب فيتنام ... وهناك جمعتْنا المصادفة بالزميلتَين، وكانتا تعملان في إحدى الوحدات ... وكنا نلتقي نحن الأربعة من حين إلى حين ونتجاذب الحديث، وعجبنا لتطابق آرائنا واتحاد مشاعرنا إزاء هذا الذي نعيش فيه من فظاعةٍ وبشاعة وبدأنا نُسائل أنفُسنا: لماذا؟ لماذا كلُّ هذا؟ ... وعندما عُدنا قرَّرنا أن نفعل شيئًا يجعل العالم يسمع صوتنا ... ولم نجِد خيرًا من المحكمة منبرًا لذلك ... واخترنا تمثال الحرية لنجعل منه مدخلًا لقضيةٍ عامة ... وأعددنا كلَّ شيء بغاية الدقَّة ليبدو الأمر كأنَّه جريمة تخريب ... وبهذا ندخل المحكمة ونتكلَّم ويُنشر كلامنا على الناس جميعًا بمختلف وسائل النشر والإعلام ... وهذا ما حدَثَ.

وهنا الْتفت القاضي إلى المدَّعي العام يسأله عمَّا إذا كان يريد أن يستجوب الشاهد ... فنهض متحفِّزًا يقول: بالطبع هناك أسئلةٌ كثيرة لا بد منها إزاء هذه البراعة والبراءة التي يريد المتَّهم أن يُصوِّر بها الجريمة ... ويحسُن أن نأخذ الوقائع بالترتيب ... أريد أولًا أن تصِفَ لنا حياتك العائلية؟

فأجاب المتّهم في سخريةٍ خفيفة: حياتي العائلية عادية جدًّا ... ليس فيها أيُّ شذوذ ... فوالدي لم يُطلّق والدتي ... ووالدتي لم تتركْني أهيمُ في الطُّرقات ... أيْ أني شابٌّ لا ينطبق عليه وصفُ ذلك الذي يسمُّونه اليوم الانحراف.

فقال المدَّعي في شيءٍ من الضِّيق: ومَن الذي ذكَرَ لك كلمة الانحراف؟! إني أسألك سؤالًا عاديًّا لتُجيب عنه ببساطة ... ومع ذلك سأعتبر أنك أجبتَ ... وأسألك سؤالًا آخر: ما هي الشركة الكبرى التي عملتَ فيها بعد تخرُّجك؟

– شركة بورتهيد لاحتكارات الصُّلب ... وكنت في القسم المالي والتجاري.

– هل كنتَ موظفًا مَرضيًّا عنك؟

– نعم ... ولكنِّي لم أكُن راضيًا عن عملي بعد أن تبيَّن لي وجود ذلك الجسر القوي بين الشركة والبنتاجون ... وفهمتُ لماذا تقوم الحروب ... ومن أجل ماذا ... ولمَن يموت مئات الألوف من الشباب الأمريكي، والملايين من الأطفال والشيوخ والنساء في آسيا.

– هل تستطيع أن تدرك ذلك من عملك بالشركة؟

– بالطبع ... فميزانية الشركة تدخل في اختصاص قسمي ... وعندما أرى أكثر من مائة ألف مليون دولار قيمة عقود يمنحها العسكريون للشركة، وهي صاحبةُ نفوذ في الحُكم، يُصبح من السهل معرفة صاحب المصلحة في الحروب.

– ألا تعرف أنَّ نظام الحُكم في بلادنا هو الديمقراطية؟

– نعم أعرف، ولكنِّي بدأتُ أعرف أيضًا أنَّ الاحتكارات والعسكرية هي الأصابع داخل قفاز الديمقراطية المطّاط.

– ألَمْ تُحاول أن تتحرَّى عن الأسباب السياسية التي جعلتْ من حرب فيتنام ضرورةً قومية؟

تحريتُ وسألتُ: لماذا لا نترك آسيا للآسيويين؟ ... ما الضرورة لأنْ نحشُر أنفُسنا هناك؟ ... ونمنعهم من اختيار النظام الذي يريدونه لأنفُسهم؟ ... فكان الجواب: استقلالهم الاقتصادي ... لا نريد استقلالهم الاقتصادي.

– ألا تعرف أنَّ استقلالهم الاقتصادي معناه انهيار اقتصادنا القومي؟

– بل معناه انهيار اقتصاد الاحتكارات التي تتضخّم بما نستنزفه من دم آسيا وأفريقيا وطعام الآسيويين والأفريقيين.

– وما الذي يهمُّك أنت من ذلك؟

– يهمُّني منع هذه الحروب التي لن تنتهي؛ لأنَّ آسيا وأفريقيا قد استيقظتَا وستدافعان عن طعامها الذي هو حياتها، والحلف العسكري الاحتكاري لن يتراجع عن خطف هذا الطعام وهذه الحياة، ولن يقبل أيَّ انتقاص من وزنه وتضخُّمه؛ لأنَّ أيَّ نقص لن يمكِّنه من إعطاء أجورٍ تُرضي عمَّاله وأرباًح تُرضي مساهميه ... وعندئذٍ ينهارً ... فهو لا بد يدافع عن حياته أيضًا ... وإذن فهي حروب يُقذف فيها بنا نحن الشباب لنموت أو نقتل غيرنا من الشعوب ... وعلى هذا نربِّي مجتمعنا كالغابة تقتل فيها الضواري غيرها لتملأ به معدتها.

– إذن أنت تريد تغيير هذا المجتمع؟

– نعم ... لأنَّه ممَّا ينافي الكرامة الإنسانية أن يبقى مثل هذا المجتمع ليراه القرن القادم.

– أنت إذن معترفٌ بأنَّك أردتَ تغيير هذا المجتمع ... بأيِّ الوسائل إذن تريد تغييره؟ بالتدمير والتخريب؟

– بتدمير الأفكار القديمة.

– عن طريق العنف؟

– لا ... لا يمكن أن نؤيِّد العنف ونحن نرفض الحرب.

– هل أنت من شباب الهيبيز؟

– أنا من الشباب الذين يرفضون الحرب وينادون بالسلام!

– هذا لم يمنع أنَّهم اقترفوا مع ذلك جرائم القتل ... فما رأيك في ذلك؟

– بالطبع لا يمكن لأحد من الشباب أن يوافق على ذلك ... وإذا كان المقصود قتَلة «شارون تيت» والمذبحة التي تمَّت في منزلها فكلانا اقشعرَّ بَدَنه عند مطالعة مذكِّرات المتَّهَم «مانسون» ... إنَّه طراز من «راسبوتين» يخلط المسيحُ بالشيطان ويمزج

السماء بالدماء ... إنّه طرازٌ وحده لا يدلّ على شيء ولا يعبِّر عن أحد ... ولا يمثّل إلا نفسه.

– ألا ترى في شبابِ الهيبيز الآخرين بسلوكهم المنفِّر نوعًا من التخريب للمجتمع؟

– إنَّه تخريب لأنفسهم قبل كلِّ شيءٍ ... وإذا كانوا قصدوا تخريب المجتمع من خلال تخريبهم لأنفسهم؛ فهي تضحية ككلِّ التضحيات الأخرى ... وعندما يجِدُون أنَّه لا خيار لهم بين أن يموتوا في الحروب من أجل الرأسمالية الاحتكارية، أو أن يموتوا بالضياع كرهًا في هذه الحروب؛ فالأمر عندهم سيَّان.

إذن أنت توافق على التخريب؟ سواء للمجتمع أو للذات؟

– أنا لا أحب ارتكاب جريمة مهما يكن نوعها.

– هل سبق لك تعاطي المارجوانا أو أيِّ نوع من المخدِّرات؟

– لا، ولا أحبُّ للشباب أن يلجأ إلى تعاطيها مهما تكُن الدوافع ... وأعتقد أنَّها نسبةٌ ضئيلة من بين ملايين الهيبيز الذين يتعاطونها، أو يiارسون الجنس علنًا، أو يأتون هذه المباذل التي يضخِّمها وينشر أخبارها مَن يهمُّهم مكافحة حركة الشباب ضدَّ الحروب بتشويه وجه هذه الثورة.

– وهل أنت من المنتمين إلى هذه الثورة؟

– نعم ... كلُّ ثورة ضدَّ هذه الحروب القذِرة ومُشعِليها من الاحتكاريين والعسكريين أنتمي إليها.

– ولماذا الشباب هم القائمون بالثورة؟

– لأنَّهم هم الذين سيشاهدون القرن الحادي والعشرين ... ويريدون أن ينقلوا إليه مجتمعًا نظيفًا ... هذه هي القضية لا يمكن أن نسمح نحن الشباب لهذا المجتمع الفاسد أن يتخطَّى أعتاب القرن الجديد ... سنفعل كلَّ شيءٍ كي نمهِّد للقرن الجديد بأفكارٍ جديدة، كما مهَّدت الثورة الفرنسية للقرن التاسع عشر بالأفكار الجديدة والمجتمع الجديد ... وكما مهَّد القرن التاسع عشر للقرن العشرين بالأفكار الاشتراكية الجديدة.

– وما هي في رأيك صورة المجتمع في القرن القادم؟

– من الصعب على الثورة أن ترِى بوضوحٍ صورةَ مجتمعٍ قادم.

– هل كان الثوار في فرنسا مثلًا عندما هدموا الباستيل يتصوَّرون نظام المجتمع بعد ثلاثين عامًا؟

– إذن هدْمُ الباستيل في رأيك هو أهمُّ خطوة في الثورة؟

– لقد كان رمزًا ... مجرَّد رمز.

– مثل هدْمِ تمثال الحرية؟

– لم نصِلْ بعدُ إلى هذا الحدِّ.

– وما الذي وصلتُم إليه؟

– بذرة الثورة ... وقد بدأتْ تنبُت فعلًا في هذا المجتمع.

– تقصد الثورة على نظام هذا المجتمع؟

– نعم.

– وما هو الفرق بين التخريب والثورة؟

– تستطيع أن تُجيب خيرًا منِّي كلٌّ من الزميلتَين ... فقد درستا العلوم الإنسانية والاجتماعية.

– عندما كنتَ تدرس في الجامعة هل كنتَ طالبًا ثائرًا؟

– لا ... كنتُ طالبًا عاديًّا.

– متى بدأتْ عندك فكرةُ الثورة؟

– بعد عودتنا من فيتنام كما سبَقَ أنْ قلتُ.

– وبقيَّة الشباب الذي لم يذهب إلى فيتنام كيف بدأتْ عنده فكرة الثورة؟

– لا أدري.

– هل يوجد قادةٌ يوجِّهون هذه الحركة؟

– لا عِلمَ لي بذلك.

– مَن منكم كان صاحب الفكرة في تخريب تمثال الحرية؟

– كلنا فكَرنا في هذا، في وقتٍ واحد.

– ومَن رسَمَ خُطة التنفيذ؟

– أنا.

– ومن أين حصلتُم على الديناميت وآلة النسف؟

– أبي يعمل في شركة مقاولات ... وقد استطعتُ أن أحصل على هذه الأدوات من مخازن الشركة.

– بعِلمِ والدك؟

– لا.

– سرقتَها إذن؟

– استعرتُها ... لم يكُن في نيَّتنا بالطبع امتلاكها أو الاحتفاظ بها.

– مفهوم ... نيَّتكم دائمًا بريئة! ومَن الذي وضَعَ أصابع الديناميت في الصخرة؟

– أنا ... بمساعدة الزميلتَين.

– وزميلكم الرابع، ماذا كان عمَلُه؟

– تركناه في الزورق؛ لأنَّه لا يُحسن الغطس.

– ومَن الذي كان عليه أن يضغط على آلة النسف؟

– لا أحد ... لأنَّه كما قُلنا لم نكُن ننوي أن ننفِّذ النسف.

– إذا كانت هذه حقيقةَ نيَّتكم؛ فلماذا لم تضعوا أصابع ديناميت فارغة، أو لم تأتوا بآلةِ نسْفٍ غير صالحةٍ للاستعمال؟

– فكَّرنا في هذا فِعلًا ... ولكننا وجدنا أنَّ هذه المهزلة ستنكشف في الحال ... وبذلك تفسد الخطة كلُّها ولن يتاح لنا الدخول إلى هذه المحكمة.

– والآن وقد دخلتم فما هي الرسالة الخطيرة التي تريدون إعلانها من فوق هذا المنبر؟

– نريد أن يعرف الناس بصورةٍ حاسمة أنّه توجد الآن قضية ... قضية جديَّة ... هي قضية القرن الحادي والعشرين ... القرن الذي لن يدخله عُدوان ولا تفرقة عنصرية أو اجتماعية أو رأسمالية احتكارية ... قرنُ الحُب والسلام والإخاء الإنساني ... وأنَّ الثورة قد بدأتْ داخل هذا المجتمع العُدواني البالي ولن يقف في سبيلها شيء إلى أن تظهر بشائر المجتمع الجديد ... ونحن نُطالب الناس جميعًا من هنا أن يثُوروا معنا على الأفكار القديمة التي لا تصلُح للحياة في عالم الغد ... وأن يعدُّوا أنفُسهم لتقبُّل التغيير الذي لا بدَّ من حدوثه ... وإلا جرفتْهم الأجيال الطالعة مع نُفايات القرن المغتصَب.

– هل عندكم فكرةٌ واضحة عن طريقة تغيير المجتمع الحالي؟

– لست أفهم السؤال.

– الثورة التي تقول إنها ستغير المجتمع هل هي ثورة اجتماعية شعبية، أو سياسية برلمانية، أو انقلابية عسكرية؟

– لا يمكن تصوُّر شيءٍ من هذا في أمريكا.

– إذن ما هذه الثورة؟

– هي ثورةُ الأفكار الجديدة لجيلٍ جديد.

– تقصد هذا الجيل من الشباب الضائع الهائم كالكلاب الضالَّة القذِرة؟

– هذا الجيل هو الطليعة المضحَّى بها، هو الحطب والوقود في نيران الثورة التي ستأكل الأفكار والقيم البالية ... ليظهر بعد ذلك الشباب الحي الذي سينتقم لهم بأفكاره وقيمه الجديدة التي تلائم القرن الحادي والعشرين.

– وهل مجرَّد الثورة الفكرية بغيرِ العنف لها الفعالية الكافية؟

– ليس العنف ضروريًّا في كلِّ الأحوال لإحداث التغييرات الكبرى ... لقد استطاع رجلٌ عاري الجسم إلا من خرقة أن يطرد إمبراطوريةً كبرى من بلاده ... ذلك هو الزعيم الهندي غاندي.

– إذن أنت تتصوَّر ثورةَ الشباب على طريقة غاندي؟

– لا أظنُّ تصوُّرهم للثورة الآن هكذا، وخاصة شباب الهيبيز لم يدرس هذا الرَّجُل دراسةً كافية ... لقد كان هو أيضًا بجسمه العاري وعنزته لا يحفل بالمظاهر، ولكنَّ تجرُّده وانطلاقه أثار في الناس العطف والاحترام، ولم يُثِر فيهم الاشمئزاز الذي يُثيره التجرُّد والانطلاق القذِر عند أغلب هؤلاء الشباب ... ولذلك فقدوا جزءًا كبيرًا من معركتهم لمجرَّد المظهر ... واستعملتْ ذلك المخابرات المركزية؛ فحرَّضتْ عليهم الرأي العام، وتحرَّش بهم السخفاء والبسطاء والجهلاء.

– هل تعتقد أنَّ هؤلاء الشباب لديهم إيمانٌ حقيقي بهذه الثورة التي تقول عنها؟

– لا أظنُّ تصوُّرهم للثورة الآن مثلَ تصوُّر الكِبار الناضجين ... إنَّ أغلبهم صغيرو السنِّ ... والثورة عندهم تلقائية وليست فكرية ... وهم يفهمونها على أنَّها طريقةُ حياة يجب أن تكون مختلفةً عن طريقة أسلافهم ... إنَّه مجرَّدُ إحساسٍ بعصرهم الجديد ... وإحساسهم بالعصر هو الذي يربطهم ويوحِّدهم ... فالوحدة في المَلبس والمَظهر بين الأمريكي والأفريقي والآسيوي اليوم، مَرجِعُها الإحساس الشديد بالعصر ... السنُّ والعصر يؤثِّران في شباب العالم كلِّه بشكلٍ واحدٍ برغم اختلاف المجتمعات والبيئات.

وسيقضي هذا ولا شك على التفرقة العنصرية والاجتماعية في المستقبل ... أمَّا الثورة من حيث هي إيمان بمذهبٍ محدَّد فهي من عمل القادة والمفكِّرين والمقنِّنين ... وسيأتي ذلك في حينه.

– ألَا تعتبر الانطلاق من حدود القيم السائدة هو نوع من التخريب؟

– لست أنا الذي يعتبر ... قوانين الدولة هي التي تُعاقب ما تعتبره من قبيل التخريب ... فالمخدِّرات مثلًا للسلطات أن تقبض على مَن يتعاطاها ... ومتعاطيها ليس الشباب وحده ... بل إنَّ أيَّ إحصائية تدلُّ على أنَّ نسبة المدمِنين من الكِبار والكهول والشيوخ أكبر بكثير ... وهؤلاء الكبار هم الذين يزرعون ويصنعون ويتاجرون في المكيِّفات كلِّها ... وهم المسئولون.

– تقصد أنَّ الأجيال القديمة مسئولة عما يحدث؟

– هذا بديهي ... إذا لم يكُن الفساد منها فما حاجتنا إلى الثورة عليها؟!

– أنت تزعم أنَّ ثورتكم بعيدةٌ عن العنف، فلماذا لجأتَ إلى شكلٍ من أشكال العنف وهو محاولةُ تخريب تمثال من ممتلكات الدولة؟

– سبَقَ أن قلتُ إنَّ نيتنا لم تكُن التخريب.

– أعرف ذلك ... ولكنِّي لا أتكلم عن النوايا الآن ... إني أتكلم عن شكل التصرُّف والإجراء ... فمثلًا إذا كنتَ تناقش شخصًا في موضوع الحُب والحرية والسلام ثم أخرجتَ له مسدس طفل، وتوهَّم هو أنَّ الأمر جِد، ألَا تكون قد لجأتَ معه إلى موقفٍ من مواقف العنف؟

– بالطبع ... ولكن في حالتنا الأمرُ مختلف ... فنحن لم نرِد التهديد ولا التخويف ولا التأثير ... نحن أردنا فقط التذرُّع بوسيلة تُدخلنا المحكمة لنناقش علنًا قضيةَ عصرٍ قادم.

– ولماذا لا يكون هناك تصويرٌ آخر للواقعة ... وهو أنَّكم أردتُم إفهامَ الشباب الثائر المتطلِّع إليكم أنَّ الالتجاء إلى شكلٍ من أشكال العنف ممكنٌ أو ضروري عند اللزوم كوسيلة مُجدِية.

– لم يخطر على بالنا أن نكون قدوةً للشباب في ذلك.

– أتظنُّ هذا يدرأ المسئُولية عنكم؟

– لا أدري.

– هل تعلم بوجود خطةٍ أو اتِّجاه عند الشباب لاستعمال العنف في المستقبل؟

– لا أعلم.

– هل تعتقد أنَّ ثورةَ الشباب لا بد أن تؤدِّي حتمًا إلى استخدام العنف؟

– ليس من المحتَّم ... فكلُّ الظواهر حتى الآن تدلُّ على أنَّها من نوعِ «المقاومة السلبية»، وإذا كان غاندي قد استطاع أن يقهر بها الإمبراطورية البريطانية فإنَّ ثورة الشباب تستطيع بها أيضًا أن تقهر الإمبراطورية الأمريكية الرأسمالية، وذلك بعد أن تتجاوز مرحلة الانطلاقة الأُولى التلقائية الغريزية الهوجاء ... ويبدأ هذا السيل المندفِع في حفْرِ المَجرَى المنتظم.

– هل تعلم بوجود منظماتٍ قيادية تعمل في هذا الاتجاه ومن أجل هذا الغرض؟

– لا ... لا أعلم.

– ولكنَّك لا تستبعد وجودَها أو التفكير في إيجادها؟

– هذا محتمَل جدًّا.

– هل هناك كتاباتٌ بالذات موجَّهة أو مؤثِّرة في الشباب؟

– بالطبع لا بد أنَّ الشباب الذي يقرأ يجِدُ في بعض الكتابات ما يؤثِّر فيه وربما يساعد على تكوين فكره الثوري، ولكنَّ هذه نسبةٌ ضئيلة من الشباب ... أمَّا الملايين فلَمْ تزل بعيدةً عن هذه القراءات، وهي الآن كما قُلتُ في مرحلة التجمُّع والتوحيد وتقليد بعضها البعض تلقائيًّا والانطلاقة الثورية الغريزية ... وهذه مرحلةٌ طبيعية في بداية الكثير من ثورات التاريخ، تبدأ كُتَل الشعب في الانطلاق المندفِع بهدفٍ عائم أو مطلبٍ عام قبل أن تدخُل في مرحلة التفكير الثوري المنظَّم المحدَّد الواضح المدروس.

– هل تعرف أحدًا من زعماء ثورة الشباب هذه؟

– لا.

– إذا كنت تعرف فهل كنتَ تقول لنا؟

– ليس هناك ما يمنع إذا لم أكُن مرتبطًا بوعدٍ أو بقَسَم.

– هل في مثل هذه الأحوال توجد ارتباطاتٌ أو نوعٌ من الحظر على حريَّة القول؟

– لا أعرف ... وليس من الضروري ... ولكنِّي أقصد أنَّ أيَّ شخصٍ يرجو منك عدم ذِكْر اسمه في مناسبةٍ من المناسبات أو في أيِّ موضوع مهما يكُن عاديًّا أو تافهًا فإنَّ الواجب أن تلبِّي طلبه.

– شكرًا.

* * *

قالها المدَّعي العام وانصرف عن الشاهد ... وهنا الْتفت القاضي إلى الدفاع وسأله عمَّا إذا كان يريد هو أيضًا بدوره أن يُلقي أسئلةً على موكِّله قبل أن يترك مقعد الشهادة ... فأجاب الدِّفاع بالنفي والاكتفاء بما أدلى به موكِّله من أقوال ... وعندئذٍ همَّ القاضي برفع الجلسة.

وقبل أن يرفع القاضي الجلسة طلَبَ المحامي أن تُخصَّص جلسةُ الغد لسماع موكَّلته المتَّهَمة الثانية كشاهدةٍ فوافق القاضي ونهض منصرفًا ... ونهض الجميع وخرجوا من القاعة وخرجنا معهم — أنا والصحفي — وسِرنا صامتَين نفكِّر فيما سمعنا ... أو على الأصحِّ كنتُ أنا الذي أفكِّر مأخوذًا، وكان هو يختلس إلي النَّظر، كما لو كان يتحيَّن الفُرص ليستطلع رأيي ... وكنتُ كلما أدركتُ منه هذا الغرض أمعنتُ في الصمت الذي يقطع عليه السبيل ... ودخلنا أحد المطاعم ... ثم خرجنا لنجِدَ بعض الصحف قد ظهرتْ تحمل العناوين المختلفة بالخطِّ الكبير، منها ما يقول: «جلسة اليوم المثيرة.» ومنها ما يعلن: «الثورة في أمريكا.» ومنها أيضًا: «اليسارية تجتاح الشباب.» واختطفنا الصُّحف وانهمكنا في قراءة التعليقات المتضاربة على ما شاهدناه وما سمعناه بأنفسنا طول النهار!

٢

حاول صاحبي الصحفي الأمريكي أن يُغريني مرةً أخرى بالحديث في شهادة المتَّهم اليوم، واستطلاع رأيي فيها ... وكنَّا قد جلسنا في مَشرَب الفندق نتناول القهوة ... وكان يدوِّن في دفتره الصغير بعض نقاطٍ من حين إلى حين ... فعلمتُ أنَّه لا بد سيكتب لصحيفته عن القضية ... إذ ليس من المعقول أن يُنفق صحفي وقته كلَّه في قاعةِ جلسة، يستمع فيها إلى قضيةٍ مهمَّة تهزُّ البلد، ولا يَخرُج من كلِّ ذلك بمقال ... ولكنْ ما هو نوع الكلام الذي سيكتبه؟ ها هي ذي تعليقاتُ الصُّحف ... أكثرها يدور حول مقدرة الشباب في إحداث تغيير حقيقي في المجتمع الأمريكي ... وبعضها يتناول ثورة الشباب بالتشهير والسخرية والتشويه ... ولكنَّ البعض يبدي اهتمامًا شديدًا بما ذُكِر في جلسة اليوم عن «المقاومة السلبية»، وكان الاهتمام عند بعضٍ آخَر مشوبًا بالقلَق ... فمِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذا السلام السلمي قد نجح في الهند على يد غاندي ... وقول المتَّهَم في شهادته إنَّه إذا كان غاندي قد قهر الإمبراطورية البريطانية بالمقاومة السلبية فليس هناك ما يمنع الأجيال الجديدة من قهر الإمبراطورية الأمريكية بنفس السلاح ... ولكنَّ السؤال الذي تردَّد هو: هل روحانية غاندي والهند لها الدخل الأكبر؟ وهل الشباب الأمريكي له مثل هذه الروحانية؟ أم أنَّ هذا السلاح يمكن استخدامه في

أيِّ بلد وأيِّ عصر؟ فإذا تذكَرنا أنَّ فكرة «المقاومة السلبية» ليست هندية، وأنَّ غاندي قد اعترف في شجاعة العظمة النادرة أنَّه استعارها من «تولستوي»، وأنَّ ما نبت في أرض روسيا قد أمكن استيراده واستنباته في أرض الهند، فإنَّ من الممكن أيضًا أن تنتقل الفكرة من بلدٍ في الشرق إلى بلدٍ في الغرب وتنبُت وتُؤتي نفس الثِّمار.

كلُّ هذه التعليقات بما تعكسه من اتجاهات تعبِّر عن قلقٍ واهتمام بمصيرِ أمريكا وحدها ... ولكنَّ المتَّهم في شهادته تحدَّث عن شيء لم تركِّز عليه الصُّحف التركيزَ الكافي ... ذلك إشارتُه إلى القرن الحادي والعشرين، وقوله إنَّ القضية في الحقيقة قضيته، وإنَّه يجب الحيلولة دون وصول العُدوان إليه في كافَّة صُوره ... إنَّها مهمَّة الشباب في العالم كلِّه إذن وليس الشباب الأمريكي وحده؛ لأنَّ القرن القادم هو مِلكُ كلِّ شابٍّ على كوكب الأرض مهما تختلف الألوان والأجناس ... وكلُّ شابٍّ على هذه الأرض من مشرقها إلى مغربها مسئُول عن الإعداد للقرن الجديد الذي سيسكنه هو بمفرده وليس الآباء والأسلاف ... لقد كانت شهادة المتَّهم الأول اليوم واضحةً في هذا المعنى ... تُرى ما الذي يمكن أن تُدلي به غدًا المتَّهمة الثانية؟ إنَّ اشتياقي لشديد! ... حبَّذا لو أسرع الغد بالمجيء؛ لأجِدَ نفسي في قاعة الجلسة ... وتركتُ صاحبي الصحفي يذهب لأعماله أو مقاله ... على أن نجتمع في صباح اليوم التالي ... ولزمتُ حُجرتي بالفندق.

وجاء الصباح ... وسِرنا معًا إلى المحكمة ... وافتُتحت الجلسة وطلَبَ القاضي من المتَّهمة الثانية أن تتقدَّم وتجلس في مقعد الشهادة ... كانت امرأةً شابَّة دون الثلاثين بقليل، متوسطةَ الجَمال، تضع على عينَيها نظارةً طبية تلمع خلفها نظراتٌ ذكيَّة لمَّاحة، وشَعرها الأشقر مصفوفٌ في أناقةٍ ولياقة ... لم يكُن في مظهرها شيءٌ خارج أو صارخ أو غير عادي ... وهذا أيضًا ما يتَّصف به كلُّ المتَّهمين الآخرين ... لم يكُن في مظهرهم الخارجي ما يستلفت النظر ... ولذلك اتَّجه التفاتنا من أول الأمر إلى أفواههم لا إلى أشكالهم.

دعاها القاضي إلى الكلام؛ فقالت في بساطةٍ واختصار: ليس عندي ما أُضيفه إلى أقوال الزميل أكثر من أنِّي وزميلتي بعد أن تخرَّجنا معًا في كلية العلوم الإنسانية بدرجةٍ ممتازة، تمَّ تعييننا في مكتبة الكونجرس وليثنا بها إلى أن دُعينا للعمل في فيتنام ... وبعد عودتنا واجتماعنا نحن الأربعة جعلنا نفكِّر في مصير العصر الذي نعيش فيه ... وما ينبغي لنا فِعْله على الصورة التي وصَفَها الزميل.

وسكتتْ ... فقام المدَّعي العام يستأذن القاضي في استجوابِ المتّهمة؛ فأذن له ... فقال: لن أُثقل على الشاهدة بسؤالها عن أُسرتها أو نشأتها ... فواضحٌ أننا أمام نوعٍ من الشباب لا يصدر في جرائمه عن انحرافٍ أخلاقي وسلوكي، ولكن عن انحرافٍ عقلي وتفكيري ... وإنَّه لمن العَجَب أن تعيش المتَّهمة بين الكتب في مكتبةٍ عظيمة كمكتبة الكونجرس ويخطر لها الاشتراك في جريمةِ تخريب ... ولذلك أُريد أن أسألها: ألَمْ تشعُر في وقتٍ ما بخطأ ما هي مُقدِمةٌ عليه؟

فقالت بهدوء: لم أشعُر بأيِّ خطأ ... بل الخطأ الوحيد في نظرنا هو السكوتُ على أخطاء هذا العصر.

– وهل أخطاء هذا العصر لم تتكشَّف لكِ إلا من حرب فيتنام؟

– هذه الحرب وغيرها هي نتيجةٌ من نتائج هذه الأخطاء.

– وهل تصحيح هذه الأخطاء يكون في رأيك عن طريق الجريمة؟

– لا بالطبع.

– إذن لماذا لجأتِ مع شركائك إلى التخريب؟

– لم نقصد التخريب.

– وماذا كنتم تقصدون؟

– كنا نقصد منعَ وصولِ أخطاءِ هذا القرن إلى القرن القادم ... وكنتُ أفكِّر كثيرًا في ذلك أثناء عملي بمكتبة الكونجرس، وعندما كنت أراجع الفهارس، كانت بعضُ الكتب تبدو لي مسئولةً عن كثيرٍ من الكوارث ... مثل تلك التي تمجِّد الحروب، وتقدِّس أمثال: الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون ... ورأيتُ الخير في إبادة هذه الكتب حتى لا تَصِل إلى الأجيال القادمة ... وفكَّرتُ في حرق القسم الذي يحتويها من مكتبة الكونجرس.

– حرقها؟! وبأي وسيلة كنت ستحرقين مكتبة الكونجرس؟

– ما معنى هذا السؤال؟

– هل فكرتِ مثَلًا في استخدام النسف بالديناميت أو بقنبلةٍ زمنية تضَعِينها في أحد أركان مكتبة الكونجرس؟

وهنا هبَّ المحامي الموكَل بالدِّفاع عنها يصيح: إنِّي أحتجُّ ... إنَّ المدَّعي العام يستغلُّ سوءَ دِفاع موكلتي وسوءَ تعبيرها بفلتةِ كلمةٍ عابرة؛ ليجعل من ذلك موضوعَ اتِّهامٍ جديد يكبِّلها به.

فقال المدَّعي العام: إنِّي لا أوجِّه اتهامًا جديدًا ... ولكنْ ما دام قد ورَدَ في أقوال المتَّهمة ما يدلُّ على سبْقِ وجودِ فكرة التخريب لديها؛ فلا بد من تتبُّع هذه الفكرة.

والْتفت إلى القاضي مُستطلعًا رأيه، فأشار إليه بالمُضيِّ في أسئلته، فعاد إلى المتَّهمة يسألها: هل أخبرتِ أحدًا من شركائك بالفكرة التي خطرتْ لكِ بحرق مكتبة الكونجرس؟

– أخبرتُ زميلتي فقط ... فضحكتْ ... وضحكنا، ولم نأخُذ الأمر بعد ذلك مأخذَ الجدِّ.

– هل ضحكتما من الفكرة لصعوبة تنفيذها؟

– نحن لم نفكِّر أبدًا في التنفيذ.

– وكيف فكَّرتم إذن في تنفيذ الجريمة الأخرى ... وهي تخريب تمثال الحرية؟

– سبق أن قُلنا إننا لم نقصد التنفيذ ... ولكنْ قصَدنَا فقط تمثيلَ مظهر الجريمة دون ارتكابها بالفعل.

– وهل عندما فكرتِ في حرقِ مكتبة الكونجرس كان قصْدُكِ أيضًا عدم تنفيذ الحرق الفعلي؟

– ولمَ لا؟

– هذه ليست إجابةً يُجاب بها في قاعةِ محكمة ... نريد منكِ جوابًا قاطعًا واضحًا.

– فكرةُ حرقِ مكتبة الكونجرس فكرةٌ سخيفة، ونتيجةُ انفعالٍ طارئ.

– وما الفرق بين حرقِ مكتبة الكونجرس وحرقِ تمثال الحرية؟

– حرقُ الكتب على كلِّ حالٍ عملٌ همجيٌّ ... مهما يكُن نوعُ الكتب ومبلغُ ضررها.

– وكيف تمنعين هذه الكتب الضارَّة من الوصول إلى الأجيال القادمة؟

– بالثورة عليها.

– ما هي العلاقة بين الثورة والتخريب؟

– ليس من الضروري أن توجد دائمًا علاقةٌ بين الثورة والتخريب ... هناك تخريبٌ بدون ثورة ... كما أنَّ هناك ثورةً بدون تخريب.

– كيف تقوم ثورةٌ بدون تخريب؟

– التخريب هو التخريب ... والثورة هي إرادة التغيير ... وقد تنشأ إرادة التغيير ويحدث التغيير فعلًا دون تخريبٍ أو عنف ... وقد سبَقَ لزميلي أن ذكَرَ شيئًا عن المقاومة السلبية، وهي سلاح الثورة السلبية.

– وقد تحدُث الثورة أيضًا بغير مقاومةٍ إطلاقًا، إذا كان الشعور العام يريدها ويؤيِّدها؛ فلا تجِدُ عندئذٍ في طريقها أيَّ اعتراض.

– ولكنَّ من النادر أن تحدُث ثورةٌ بغير عنف.

– إنَّ العنف يأتي من وجود اعتراض مضادٍّ للثورة، أي قوة تقِفُ في وجه إرادة التغيير، وتعمل على صدِّها بالعنف ... فلا تجِدُ الثورة بدًّا هي الأخرى من شقِّ طريقها بنفس العنف؛ إنِّ العنف يُولد من العنف.

– ولماذا فكَّرتم أنتم، في بداية ما تسمُّونه ثورتَكم، باستخدام العنف؟

– سبَقَ أن قُلنا إننا لم نقصد غيرَ مجرَّد استلفات النظر.

– ولماذا يكون لفتُ النظر بالجريمة؟

– قلت الآن إنَّها ليست جريمة ... ولكنَّها تمثيلٌ فقط لمَظهر الجريمة.

– تمثيلُ العنف بمظهرِ العنف، أليس هو نوعًا من الإرهاب؟

– لم نقصد الإرهاب.

– إنَّه على كلِّ حالٍ اعترافٌ منكم بقيمة العنف.

– نحن ضِد استخدامِ العنف.

– ولكنَّ قيامكم بتمثيله على حدِّ قولكم، وإتقان هذا التمثيل هو دليلَ قاطع على أنّكم لم تُسقطوه من حسابكم.

– إنه مجرَّد مَظهر.

– أليس في الالتجاء إلى مجرَّد المظهر دليلٌ على أنكم في حاجة إليه ... وإلى أنَّ مجرَّد صورة الجريمة مفيدةٌ لكم في القيام بنشاطكم؟

– مع الأسف إننا نعيش في مجتمع لا يلفت نظره شيءٌ مثل مَظهر الجريمة، أو مَنظَر مَظهَر الجريمة، أو منظر الشذوذ.

– ما هو سبب عداوتكم لهذا المجتمع وثورتكم عليه؟

– سبَقَ أن تكلَّم زميلي في هذا ... ولا أرى داعيًا إلى تكراره ... ولكنْ لا بأس من أن أؤكِّد معه مرةً أخرى أنَّ هذا المجتمع غيرُ صالحٍ للحياة المستقبلة ... فهو يعيش مخدَّرًا ... ولا بد من هزَّة تُوقظه وتُفيقه ليدرك أنَّه يحلُم دائمًا بصُورٍ قديمة، في وقتٍ يبشِّر فيه إنسانُ الفضاء ببدايةِ تفكيرٍ جديد ... هذا المجتمع الذي لا يعجب ولا يُدهش لساسةٍ وقُوَّاد ما زالوا يحلُمون بسطوة الإمبراطوريات الغابرة، ولحكام ودُولٍ ما زالت تحلُم بإعادة مجدِ ملوك التوراة، ويعجب ويسخر ويتَّهم بالبدائية شبابًا يُطلِقون الشَّعر ويسيرون وهم عُراة! ... مثل هذا المجتمع الذي يرى الشذوذ في السفاسِف، ولا يراه ولا يحاربه في العقول والأحلام التي تجرُّ إلى الكوارث، هو مجتمعٌ غيرُ جديرٍ بالحياة في القرن القادم.

– إذن أنتم تريدون أن تهدموا في المجتمع صُور الماضي؟

– نحن نريد من المجتمع أن يكون جديرًا بعصره وأن يتأمَّل بتفكيرٍ طليق حر كلَّ الصُّور والقيم، وأن يحلِّلها على ضوء الحاضر والمستقبل؛ ليستبقي منها فقط ما يمكن أن يبني به إنسانيةً جديدة في عصر الفضاء الجديد.

– ومَن الذي له حقُّ الحُكم على الصُّور والقيم؟ أنتم؟!

– نحن وغيرنا ... حتى الكهول والشيوخ ... كلُّ مَن استطاع أن يتحرَّر بعقله وفكره من جاذبية الأرض المعنوية للعادات الموروثة والأفكار المغروسة.

– إذن أنتم تريدون هدْمَ القيَم والأفكار التي يعيش عليها المجتمع؟

– نحن نريد أن نقول إنّه في عصر الإنسان الجديد لا توجد مسَلمات وأنَّ كلَ شيء يجب أن يُعاد فيه النَّظر.

ألَا تعتقدون أنَّه لا بد من مسَلَّمات يرتكز عليها المجتمع وأنَّ مَن يهدمها مثل مَن يهدم أساسَ بيتٍ بحجَّة إعادة بنائه؟

– نحن نريد فعلًا إعادة بناء المجتمع.

– أليست إعادة البناء تقتضي الهدم أولًا؟

– طبيعي.

– شكرًا.

وترك المدَّعي العام المتَّهمة والْتفت إلى المحلَّفين قائلًا: لقد وصلنا أخيرًا إلى النتيجة الطبيعية، وهي وجود نية الهدم والتخريب عند هؤلاء المتَّهمين ... وقد اعترفتْ أمامكم هذه المتَّهمة بأنَّ هدم المجتمع بدعوى إعادة بنائه هو شيءٌ طبيعي ... فإذا زعموا لنا أنَّ نية التخريب لم تكُن موجودةً لديهم عندما وضعوا الديناميت في أسفل التمثال واستعدوا للنسف بجهاز صالح للاستعمال كان على وشك التفجير وإحداث الآثار المدمِّرة، إذا زعموا لنا ذلك، وحاولوا إيهامنا ببراءة قصدهم فهل نصدِّقهم؟ وإذا تذكَّرنا تفكيرَ المتَّهمة في حرْقِ مكتبة الكونجرس فهل نصدِّقها؟

وأخذ المحلَّفون يتفرَّسون في وجه المتَّهمة وهي في مكانها جالسةٌ بمقعد الشهادة هادئةً رابطةَ الجأش ... ونهَضَ المحامي عنها يطلُب مناقشتها ... فسمح له القاضي بذلك ... على أن تبدأ هذه المناقشة بعد الظُّهر، بناءً على طلب الدفاع، حتى لا يكون هناك إرهاقٌ لموكلته ... ورُفعت الجلسة ... وخرجنا — أنا وصاحبي الصحفي — نتناول القهوة والشطائر ونمشي في الشوارع ... وإذا الصُّحف قد ظهرتْ تحمل العنوان الضخم المثير «حرق مكتبة الكونجرس»! ... على أنَّ الشوارع كان فيها من المظاهر المثيرة ما يبعث كذلك على العجب والتفكير ... ففي كلِّ مُنعطَف كنَّا نصادف طوائفَ من الجُموع تحمل لافتاتٍ عليها شعاراتٌ غريبة وأحيانًا متناقِضة؛ فمنها ما يُطالب بالمساواة بين البِيض والسُّود، ومنها ما يُطالب بسحق السُّود ... ومنها ما يطالب بمنع الحروب ... ومنها ما يطالب بإباحة الشذوذ الجنسي ... ومنها ما يُعلِن أنَّه يحبِّذ سيادة الرَّجُل على المرأة، ومنها ما يبارك سيادة المرأة على الرَّجُل، إلى آخر ما يمكن تصوُّره من صيحاتٍ وتشنجاتٍ وتقلصاتٍ تنمُّ عن مجتمعٍ في حالةِ مرضٍ نفسي

... وكان صاحبي يمرُّ بكلَ ذلك ولا تبدو عليه الدهشة، كأنّها مشاهدةٌ عاديَّة يومية ... ولكنَّ الأمر معي مختلفٌ؛ فأنا القادم من بعيدٍ بدأتُ ألمَحُ في كلِّ هذا الذي أرى نذيرًا لشيءٍ سوف يحدُث، ليس من السهل الآن تبيُّن ملامحه.

وجاء وقت العودة إلى المحكمة ... فعُدنا إليها وجلسنا في أماكننا المعتادة، ولم تلبث الجلسة أن عُقدت ... واتَّخذت المتهمة الثانية مكانها في مقعد الشهادة، وأشار القاضي إلى محاميها ليبدأ مناقشتها ... فسألها المحامي: عندما قُلتُ إنَّكم تريدون هدم المجتمع لإعادة بنائه، هل كنتِ تقصدين بذلك الهدم المادي أو الهدم المعنوي؟

فأجابت المتَّهمة على الفور: الهدم المعنوي طبعًا.

– وهل كنتِ تقصدين أنكِ أنت بالذات المنوط بك مع زملائك القيام بهذا الهدم والبناء؟

– لا ... ليس هذا قصدي ... عندما أقول نحن نريد هدم المجتمع أو إصلاحه إنما نستعمل أسلوبًا لغويًّا في التعبير يرادف قولنا نتمنَّى أو نتنبَّأ؛ لأنَّ هذا عملٌ أكبر منَّا ... وكلُّ ما نستطيع القيام به وما أردنا تنفيذه هو التبشير أو النذير أو توجيه النَّظر.

– إذن كان فِعلُكم كمَن يُطلق شعلةً في الجوِّ المُظلِم لينبِّه الناس إلى شيء؟

– هذا هو ما أردناه بالضبط.

– وهذا الذي أردتُم أن تُعلنوه أو تنبِّهوا إليه هو لخير المجتمع؟

– بالطبع ... كلُّ تشخيص لحالة المجتمع هو لمصلحته ... هذا المجتمع اليوم في حالةِ وحَم يدلُّ على أنَّه يحملَ في بطنه جنينًا ... وكلُّ أعراض الوحَم الشديد ظاهرةٌ اليوم في هذا القرف العام والقيء المستمرِّ والمزاج العصبي والتوتُّر والقلَقِ والشهيَّة المفقودة أحيانًا أو المفتوحة للرغبات الشاذَّة أحيانًا أخرى ... والتراخي والترهُّل والإهمال والتفسُّخ والشكوى والصياح والشعور بالاختناق والرغبة في الانطلاق ... إنَّه الوحَم في أشدِّ حالاته مُؤذِنًا بتحرُّك الجنين في بطن المجتمع الحامل.

– ماذا تقصدين بهذا الجنين؟

– هذا الجنين هو الثمرة الطبيعية لحادثَين من أضخم أحداث البشرية ... بل هما أضخم ما حدَثَ للإنسان في كلِّ عصوره، وهما: إلقاء قنبلةِ هيروشيما، ونزول الإنسان على القمر ... إننا لم نزَل في نصفِ وعيٍ لمَا جرى وللنتائجِ، كمَنْ تسرقه السكين ...

وإذا راجعنا التاريخ نجِدُ مجتمعات قد قَلَبَت قلبًا لأحداثٍ أقلَ من ذلك قدْرًا، وأهونَ شأنًا، كظُهور البارود أو البُخار أو الكهرباء، ولكنْ لا بد دائمًا من بعض الوقت لتُحدِث هذه الأحداث أثرها في تحويل المجتمع وقلْبِه وتغييره ... وهذا ما سيحدُث حتمًا.

– فلْنعد إلى صورة الجنين ... هل تعتقدين أنَّ هذا الجنين سيُولد مشوَّها أو منتظِم الخِلقة؟

– أرجو أن يكون منتظِمَ الخِلقة.

– أليست ثورة الشباب هي أحد ملامحه؟

– أظنُّ أنَّها أحدُ مظاهر الوحَم ... إنَّها أحدُ دلائلِ الشيء ... ولكنَّها ليست الشيءَ نفسه.

– هل أنتِ متفائلةٌ بطبعكِ؟

– لم أدرس نفسي جيدًا ... أحيانًا وأحيانًا ... لكنَّ الذي يهمُّني هو محاولةُ رؤيةِ الغد ... ربما تسرَّب إلى الرؤية بعضُ تمنياتي الخاصَّة ... وكذلك بعض استنتاجاتي المبنيَّة على القراءات والمشاهدات.

– هل تقرئين كثيرًا؟

– كثيرًا جدًّا ... أغلب وقتنا — أنا وزميلتي — نُمضيه في القراءة ونتبادل الكتب ... ووجودنا في مكتبة الكونجرس معًا يسهِّل ذلك.

– هل تعتقدين أنَّ مجتمع الغد سيكون أفضلَ من مجتمع اليوم؟

– إنَّه سيكون على كلِّ حالٍ ابنَ زمانه.

– هل سيكون مجتمعًا علميًّا أو بدائيًّا؟

– الاختلاف بين العلمي والبدائي هو في المنهج. وما نسمِّيه العلم هو الوصول إلى المعرفة عن طريق المنهج العقلي، وما نسمِّيه البدائية هو الوصول إلى المعرفة عن طريقٍ غير منهجي وغير عقلي ... ومجتمعنا قائمٌ على أساس العلم العقلي ... وليس ما يمنع أنْ يُضاف إليه غدًا طريقُ المعرفة البدائية.

– أهو ارتدادٌ إذن إلى الوراء؟

– ليس بالضبط ... يجب أولا أن نجِدَ كلمة أخرى غير كلمةِ البدائية أو البدائي؛ لأنَّه في الحقيقة لا توجد بداية أو نهاية في هذا الكون ... المقياس العقلي هو الذي اخترع هذه الكلمة؛ لأنَّه لا بد أن يعمل في نطاقٍ زمني أو مكاني محدَّد ... أيْ لا بد لهذا الجهاز من نقطتَين، نقطة ابتداءٍ ونقطة وصول ... لكنَّ الكون أو الطبيعة لا تعرف ذلك ... إنها تعرف فقط التحوُّلات والتغيُّرات المستمرَّة.

– ألَا يوجد إذن سيرٌ إلى الأمام؟!

– بدون شكٍّ ... عندما يختار الإنسان طريقًا ويسير فيه فإنَّه يتقدَّم ... وهذا ما حدث للإنسان عندما اختار السَّير في الطريق العقلي ... وصَلَ فيه إلى هذه المخترعات المُذهِلة، ولكنَّ الإنسان قبل أن يختار الطريقَ العقلي كانت في تركيبه قُوى مُذهِلة أيضًا ... كان في داخله جهاز رادار ... وكانت لديه حدَّةٌ هائلة في الإبصار، سواء في المنظور أو غير المنظور ... وكان يستطيع التحكُّم في أشياءَ خارجيةٍ بمصادر خفيَّة لقُوى داخلية ... ولكنَّ هذا الإنسان خطَرَ له ذاتَ يومٍ أن يستخدم أداةً مع يده كفرعِ شجرةٍ أو قطعةٍ من صخرة، فإذا به يخترع المُدية والحرِبة، أيْ يكتشف فيه العقل الذي يفكِّر ويستخدم ويخلُق ويخترع، وحَلَا له ذلك فشغَّل هذا الجهاز العقلي في اختراعٍ تلوَ اختراع، وأصبح مبهورًا بمخترعاته فاعتمد ونسي ملكاتها الأصلية فضمرتْ وتلاشتْ ... ومضى في طريقه العقلي يخلُق ويخترِع ويكتشف حتى وصل إلى مجتمعنا اليوم ... مجتمع التكنولوجيا الحاسبة والعاقلة، تفكِّر له وتعمل.

– إذن هناك خطرٌ على مجتمعنا هذا أن تُضمر فيه أيضًا ملكة التفكير؟

– ليس بهذه السرعة ولا بهذه السهولة، ولكنَّ الذي يحدُث من حينٍ إلى حين هو التنبه والالتفات إلى البحث عن المصادر الأخرى للمعرفة غير مصدر العقل العلمي المنهجي ... من ذلك اهتمام بعض العلماء بالروحانيات أو بالتحليل النفسي وما يسمَّى بالمناطق غير الواعية، ثم ظهور المذاهب الفنية التي تحاول ارتياد المنابع التلقائية في فنون الأطفال أو القبائل القريبة من بيئة الإنسان الأول.

– ألَا تعتقدِينَ أنَّ ثورة الشباب هي أيضًا بادرة من هذه البوادر؟

– مُحتمَلٌ جدًّا ... الشباب بالطبع لا يفكِّر في ذلك هكذا بطريقٍ مباشر، ولكنْ ربما كان الجوُّ العام لمجتمعنا التكنولوجي يثير فيه تلقائيًّا الرغبة في الانفلات من مداره، إمَّا

عن طريق العودة إلى بيئة الإنسان الأول بعُريه وتحرُّره الاجتماعي، وإمَّا عن طريق الانطلاق من العقل كلّه بعقاقير تقذف به بعيدًا عن عصرنا.

– هل تعتقدين أنَّ شباب العالم متَّحدٌ في هذا الاتجاه؟

– بالعكس ... هناك ظروفُ كلِّ شعب على حِدة، وما ينطبق على مجتمع لا ينطبق تمامًا على مجتمع آخر ... كذلك الشباب نفسه يختلف بعضه عن بعض ... ولكنَّ كلامي منصبٌّ علَى مجتمعٍ مثل مجتمعنا هذا الرأسمالي والتكنولوجي.

– هل هناك أشياءُ يتَّحد فيها شباب العالم على اختلاف مجتمعاته واختلاف شعوبه وأجناسه؟

– نعم ... هي الإحساس برُوح العصر الجديد ... إنَّه إحساسُ شباب العالم كلِّه اليوم بوحدة العصر ووحدة العالم ... وبالمستقبل المتحرِّر من القديم البالي.

– كيف يمكن التوفيق بين رغبة التحرُّر من القديم ورغبة العودة إلى البدائية؟

– البدائية ليست هي القديم ... إنَّها الفطرة السليمة الأبدية في الإنسان ... وإذا أُخذتْ بالمعنى المتعارَف عليه في الفنون كما قُلت من تشكيليَّة وموسيقيَّة؛ فإنها تعني شيئًا مهمًّا. أمَّا القديم فالمقصود به التقاليد والعادات والأذواق التي راقت للسلف ويريدون فرضَها على الخلف فرضًا لمجرَّد كونها قديمة، كاعتبار خلع القبَّعة عند التحية أدبًا ... أو حلْق الشارب أو الشَّعر واجبًا، أو تذوُّق هذا النوع من الموسيقى أو من التصوير والنحت أو من الكتب أو الأدب تهذيبًا.

– هل تحبِّين «بيكاسو»؟

– أحبُّ «بيكاسو» و«كاندنسكي» و«بول كليه»؛ لأنَّهم الْتفتوا إلى الفنِّ الأفريقي البدائي لدراسة أسراره، ولو كان بيتهوفن حيًّا لاستلهم موسيقى الزنوج كما استلهَمَ موسيقى الغجَر في سيمفونيته السابعة ... وكما استلهَمَ شكسبير المهرِّجين في نِكاتهم وبذاءتهم ... إنَّ العظيم يرى الأشياء عظيمةً والصغير يراها صغيرة.

– لو فُرض ولم يخطر للإنسان البدائي أن يختار طريق العقل واستمرَّ في طريق قُواه الأخرى الخفيَّة، إلى أيِّ مدًى كان يمكنه التقدُّم فيها؟

– لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال؛ لأنِّي عاجزةٌ عن تصوُّر الإنسان بغير تقدُّمه العقلي.

– إذن أنتِ مع التقدُّم، ولست مع تدمير التقدُّم؟

– بدون شكٍّ ... ولكنْ يجب دائمًا أن نحدِّد معاني الألفاظ ... ما هو معنى التقدُّم؟ لقد سبق أن قُلت إنَّ الطبيعة لا تعرف غير التحوُّلات والتغيُّرات الضرورية والصالحة للحياة ... فهي مثلًا لو فهمَت التقدُّم كما نفهمه لجعلَت الخلية الأولى تتقدَّم في زيادة الحجم تقدُّمًا مطَّردًا ومنتظمًا ... فالنملة مثلًا تؤدِّي إلى الفأر ثم إلى القطة ثم إلى الكلب ثم إلى الإنسان ثم إلى البقرة وإلى الفيل إلى أن تصِلَ اليوم إلى الديناصور ... ولكنَّ الذي حدَثَ هو أنَّ هذا التقدُّم الضخم في الحجم جاء قبل الإنسان الصغير الحجم نسبيًّا بنحو سبعين مليون سنة ... إذن هي تحوُّلات وتغيُّرات طبقًا لظروفٍ محيطة ... وما نسمِّيه بالتقدُّم أو التضخُّم العقلي للإنسان اليوم قد يصل غدًا إلى حدٍّ يجعل من الضروري لحياته أن تُحدث له تحوُّلاتٍ وتغيُّرات أخرى.

– هل هناك أملٌ أو وسيلة لكي يسترجع الإنسان بعض ما فقَدَه من القُوى الخفيَّة البدائية؟

– أظنُّ هذا يحدُث في كلِّ عصر من عصور التاريخ؛ فهناك دائمًا محاولاتٌ لمَن يسمُّونهم السحَرة أو الكهَّان أو فقراء الهنود ... من الحقيقيين طبعًا لا المُشعوِذين ... وقد وصَلَ بعضُهم بنوعٍ من المِران الطويل أو التصوُّف أو التجرُّد الروحي أو الشفافية النفسية إلى شيءٍ من التحكُّم في الأشياء البعيدة وتحريكها ونقلها بقواه الداخلية وحدها دون أيِّ تدخُّلٍ مادي.

– ما رأيكِ لو استطاع النوع البشري كلُّه استرجاعَ هذه القُوى الخفية؟

– سيكون ذلك بالطبع شيئًا رائعًا ... ولكني لا أريد أن أكون موجودةً لأرى ذلك.

– لماذا؟

– يخيَّل إليَّ أني لن أكون سعيدةً في عالَمٍ كهذا ... نعرف فيه ولا نخلق.

– هل هي عادةُ تشغيلِ جهاز العقل؟

– لست أدري ... ولكنِّي لو خيِّرتُ بين أن أكون جهازًا كاملًا للمعرفة ولا أخلق، أو أن أكون جهازًا ناقصًا وأخلق؛ فإني أفضِّل الثاني.

– ألَمْ يسبق لكِ أن تعاطيتِ المخدِّرات؟

– لا.

– أَلَمْ تصادفي أحدًا يُغريكِ بهذه التجربة؟

– صادفتُ طبعًا ... ولكني قاومتُ الإغراء ... خفتُ أن أقع أسيرةَ هذه العادة.

– إذن أنتِ تحافظين على القِيم؟

– طبعًا ... القِيم الصالحة للبقاء.

– أنتِ إذن لديكِ رُوح المحافظة؟

– نعم.

– كيف تتَّفق إذن رُوح المحافظة مع رُوح التدمير؟

– لا أدري.

– أشكركِ.

الْتفت المحامي نحو المحلَّفين وقال: نحن ندري الآن ... ندري أنَّ موكِّلتي في حقيقتها وأعماقها محافِظة، ولا يمكن لمثلها أن يعرف التخريب أو يقصد التدمير ... ولا حاجة لي أن أتكلَّم أكثر من ذلك ... فإجاباتُها أمامكم واضحةٌ ولا يمكن أن تصدُر عن شخصٍ يوصف بما وصفها به الادعاء.

وعاد المحامي إلى مكانه ... ورأى القاضي أن المدَّعي العام قد لزِم الصمتَ ولم يطلُب العودة إلى سؤال المتَّهمة؛ فأشار إليها بترك مقعد الشهادة ... ورفَعَ الجلسة على أن تُعقد في اليوم التالي.

وفي اليوم التالي عُدنا لنَجِد في انتظارنا مفاجأةً أدهشتْنا وأدهشَت الحاضرين ... فقَدْ أحضر المدَّعي العام شاهدًا لم يكُن في الحسبان، وطلب من المحكمة سماع أقواله. كان هذا الشاهد قسيسًا ... تكلَّم وقرَّر أنَّ المتَّهمَين الرجلَين جاءا إليه ذات يوم منذ نحو ثلاثة شهور ليعقد بينها الزواج! ... كما أنَّه في نفس اليوم حضرت إليه المتَّهمتان المرأتان وطلبَتَا نفس الأمر، وهو عقْدُ الزواج بينهما؛ وقد رفَضَ هذا النوع من القِران الذي يجمع بين اثنين من نفس الجنس ... وعندئذٍ قام المدَّعي العام يناقشه قائلًا: هل تعتبر هذا النوع من الزواج مخالِفًا للدِّين؟

فأجاب: ومخالفٌ لقوانين الدولة، ولأخلاق المجتمع.

– وما هو غرض المتَّهمين من هذا التصرُّف؟

– لا أدري ... إنَّه تصرُّف شاذٌّ على كلِّ حال.

– هل يقصدون بهذا التصرُّف الشاذ هدمَ القِيم؟

– هذا فعلًا هدمٌ للقِيم.

– شكرًا.

وجعل المدَّعي العام يعلِّق على ذلك قائلًا: لا شكَّ في أنَّ ما سمعناه الآن من القسِّ المحترم ينفي نفيًا قاطعًا ما سمعناه بالأمس من الدِّفاع عن محافظةِ المتَّهمة على القِيم ... وأنَّ المتهمين الذين تبلُغ بهم الجُرأة أن يُقدِموا على تصرُّفٍ شاذٍّ كهذا، فيه تخريب لأخلاق المجتمع، لا يستكثر عليهم تخريب تمثال الحريَّة أو حَرْق مكتبةِ الكونجرس!

وعندئذٍ قام محامي المتَّهمة الثانية يطلُب سماع أقوالها مرةً أخرى كشاهدة ... فنهضتْ وجلستْ في كرسي الشهادة ... فسألها: قلتِ لنا بالأمس إنكِ تحافظين على القِيم؛ فكيف تفسِّرين هذا التصرُّف الذي سمعناه الآن؟

فأجابتْ بغير تردُّد: ما قُلتُه بالضبط هو أنِّي أحافظ على القِيم الصالحة للبقاء.

– وما هو المقياس لمَا يصلُح للبقاء وما لا يصلُح؟

– ما لا يصلُح للبقاء هو ما يبقى بعد زوال أسبابه.

– وهل زالتْ أسبابُ الزواج بين الذَّكر والأنثى؟

– لا بالطبع ... ولكن زالت أسبابُ التحريم للزواج بين الذَّكر والذَّكر وبين الأنثى والأنثى.

– كيف حدَثَ هذا؟ أرجوكِ توضيح هذه النقطة.

– يجب أن نسأل أولًا: لماذا شُرع الزواج بين الذَّكر والأنثى؟ كان الأساس في ذلك طبعًا هو النسل والتناسل ... في الماضي كان النسل نعمة ... واليوم النسل نقمة بعد أن هدَّد الانفجارُ السُّكاني العالَمَ بالكوارث ... وفي مجتمعِ النسل الذي عاش آلاف السنين، كانت التشريعات تقوم على حماية النسل والحضِّ عليه؛ فكان من الطبيعي أن يُفهم

الزواج على أنه المؤدِّي إلى النسل ... وهذا لا يكون إلا بالجمع بين الذكر والأنثى ... وحُورب كلُّ اقترانٍ آخر لا يؤدِّي إلى التناسُل خوفًا من التناقص ... في زمنٍ كان التكاثر هو مفخرة الأُسَر والقبائل والأمم ... أمَّا اليوم فالأمرُ قد اختلف ... وبعد مجتمع النسل أصبحنا في مجتمعِ تحديد النسل، فما هو إذن وجه التحريم لقِران لا يؤدِّي إلى نسل؟ إذا كانت أسبابُ التحريم قد زالتْ فلماذا يبقى التحريم؟

– ولماذا أردتِ الزواج من زميلتكِ؟

– هذه رغبتنا المشترَكة.

– أهي المعاشرة الجنسية؟

– لو كانت المعاشرة الجنسية لاستمرَّت في الخفاء، ولمَا كانت هناك ضرورةٌ لإعلانها ... ولكننا أردنا أن نُقيم علاقتنا على أساسٍ شرعي تأكيدًا وإظهارًا لرغبتنا في ضرورة إعادة النظر في أسباب التشريع وأصول الشرائع.

– هل كان ذهابكم أنتم الأربعة لعقد هذا القران في نفس الوقت بناء على اتفاقٍ سابق بينكم؟

– نعم ... لقد خطرتْ لنا الفكرة ونفَّذناها معًا.

– هل كنتم تقصدون تحدِّي القوانين؟

– لا ... كنا نقصد فقط لفتَ النظر إلى زوال أسباب هذه القوانين ... وأنَّ عصرنا يجب أن يُعيد فيها النظر.

– ولماذا اخترتم قانون الزواج بالذات؟

– لأنه أشدُّها لفتًا للنظر ... هناك قانونٌ آخر أقلُّ شأنًا؛ تحريم الإجهاض ... وذلك في وقتٍ يشجَّع فيه تناول أدوية منع الحمل ... أيوجد تناقُض أكثر من هذا؟ ولكنَّه جبنُ المجتمع عن إلغاء تحريمٍ قديم.

– ما هي أسباب هذا الجبن للمجتمع؟

– خوفه من مناقشة المسلَّمات ... وعجزه عن التحرُّر من العادات.

– إذن كان غرضكِ هو الدعوة إلى مناقشة المسلَّمات والعادات؟

– نعم.

– ولكنَّ الادعاء يعتبر هذا الفعل من قبيل هدْمِ قِيَم المجتمع؟

– إذن لن تكون هناك مناقشاتٌ حرَّة للمسلَّمات والعادات فكيف تنتقل البشرية من مجتمعٍ إلى مجتمع؟ إنَّ الديانات السماوية لم تقُم إلا على أساسِ الدعوة إلى مناقشة المسلَّمات والعادات الراسخة في العهود الوثنية.

– أنتِ تعتبرين إذن مناقشة المسلَّمات عملًا مشروعًا؟

– نعم ... وأكثر من ذلك ... هو ضرورةٌ اجتماعية ... ونحن الآن في صدد التمهيد لمجتمع القرن الحادي والعشرين؛ فلا بد من مناقشة المسلَّمات التي لا يُناقشها أحد ... ونفحصها بحريَّة وعناية؛ لنرى هل أسبابها موجودةٌ أو زالتْ أو ضعفتْ، ولكنَّها هي بقيتْ بالعادة، ورسخت بالتحجُّر والتقديس العقيم الذي يشبه الوثنية ... كانت الوثنية تقدِّس الأحجار ... ونحن نقدِّس الأفكار.

– إذن لم يكُن قصدكِ الإضرار بالمجتمع؟

– بالعكس.

– أشكركِ.

وتركها قائلًا للمحلَّفين: أيُؤخذ من هذه الأقوال أنَّ موكِّلتي من طائفةِ المخرِّبين أو هي من طائفة المصلِحين؟ أرجو أن تكون قد زالت من أذهانكم الصورة القاتمة التي أراد أن يصبغها بها الادِّعاء.

وقام الادِّعاء يستجوب بدوره المتَّهمة مستهِلًّا كلامه بالسخرية من كلمة المُصلِحين ... وسأل المتَّهَمة: هل تعترفين بوجود الأخلاق؟

فقالت: بالطبع أعترف.

– بماذا تصِفِين إذن مَن يخرِّب عامدًا هذه الأخلاق؟

– لا أريد أن أكرِّر ما سبق أنْ قلتُ، وهو أنَّه يجب أولًا تحديد معنى الكلمات ولا سيما الكليَّات الكبيرة ... فإنَّ أكبر الأخطاء تأتي من إطلاق كلمةٍ ضخمة نسلِّم بها قبل أن نفحصها ... ما هو المقصود بكلمة الأخلاق؟

– هو ما تعارَفَ عليه المجتمع أنّه من أخلاقياته.

– يجب أيضًا أن نحدِّد ذلك المجتمع بأنَّه مجتمعٌ بالذات في زمنٍ بالذات ... فقَدْ كان من أخلاقيات زمنٍ مضى ومجتمعٍ مضى، أنَّ المرأة التي تدخِّن ليست فاضلة، والتي تسير بغير قبَّعة تعتبر مُستهتِرة، وأنَّ لباس السهرة الرسمي للرجل هو الفَرَاك وصدر القميص الأبيض المنشَّى الذي يخنقه طول الليل، في حين أنَّ ثوبَ المرأة الرسمي هو العاري الصَّدر والكتفَين والظَّهر ... ومَن يذهب إلى حفلةٍ رسمية بغير ذلك يُعتبر خارجًا على الآداب واللياقة وحسنِ السُّلوك.

وهنا عَلتْ أصواتُ الضحك من الحاضرين مما اضطر القاضي إلى الدقِّ بمِطرقته ليُعيد النظام ... وبدا الامتعاض على وجه المدَّعي العام، وقد رأى المتَّهمة تخرج بالإجابة إلى مجال لا يريده.

فأسرع يقول لها: أنتِ تعرفين أننا نتكلَّم عن مجتمعنا الحاضر، وأنتِ تخرجين على قوانين هذا المجتمع، فهل أنتِ معترفة بذلك؟

– أرجو أن تحدِّدوا لي هذه القوانين التي يُقال إني خرجتُ عليها.

– أولًا شُروعك في تخريب تمثال الحرية.

– إذا اقتنع المحلَّفون واقتنعَت المحكمة بأنِّي مذنِبة وكان قصدي فعلًا التخريب؛ فأنا مستعدَّة للجزاء.

– ثانيًا اعترافكِ بالذهاب إلى القسيس ليعقد زواجًا غير شرعي على زميلةٍ لكِ؟

– وما هي الجريمة في هذا؟ إننا لم نفعل شيئًا في السرِّ، ولم نزوِّر شهادة، ولم نستعمل ضغطًا ولا إرهابًا ... لقد ذهبنا في وضَح النهار، وبكلِّ لُطفٍ وأدب نسأل القسيس أن يعقد هذا القِران؛ فامتنع وأفهمنا أنَّ هذا لا يجوز فانصرفنا وانتهى الأمر عند هذا الحدِّ من جانبنا، وقد اعتقدنا أنَّ القس من جانبه سيبلِّغ الجهات المختصَّة ويحدُث الدويُّ الذي قصدناه.

– إذن لقد اعترفتِ الآن أمام المحكمة أنَّ غرضكم من هذا هو التظاهُر ولفتُ الأنظار إلى أنَّكم تريدون هدْمَ القِيم التي يَدين بها المجتمع.

وماذا في لفت الأنظار؟ أليس هذا من حقِّنا؟

– هل من حقَكم الترويج لفكرة هدْمِ القِيم؟

أليس من حقِّنا فحصُ وتمحيص حقيقةِ هذه القِيم؟

– مَن الذي أعطاكم هذا الحقَّ؟

– العقل الذي في رءُوسنا يفكِّر.

– إذا كان كلُّ فرد يُعطي لنفسه الحقَّ في الإخلال بالنظام المعمول به؛ لخرب كل شيء.

– أحيانًا لا يكون في ذلك خرابٌ بل صلاح.

– كيف يكون هذا؟

– كان مثلٍ هذا في يومٍ من الأيام، دخَلَ المسيح المعبد وطرَدَ التُّجار، واعتبروا ذلك وقتئذٍ إخلالًا بالنظام المعمول به في مجتمع ذلك العهد.

– وهل المسيح فردٌ عادي؟

– في نظَرِ مجتمعه كان كذلك ... الناس والسُّلطات ... أكثرهم كان يعتبره فردًا عاديًّا.

– وماذا كانت النتيجة؟ ألم يقبضوا عليه ويقدِّموه إلى المحاكمة، ثم إلى الصَّلب كأيِّ فردٍ من الأفراد؟

– بعد أن أدَّى رسالته.

– وما هي رسالته؟

– الحُب والسلام بين البشَر.

– هل تؤمنين بالمسيح؟

– بالطبع ... لأني أؤمن بالحُب والسلام.

– وهل تؤمنين بتعاليم الكنيسة وقوانين المسيحية؟

– مَن آمن بالحُب والسلام؛ فقَدْ آمن بكلِّ شيء.

– لا تتهرَّبي من السؤال ... أريد إجابة محدَّدة، هل تؤمنين بالقِيم السائدة في المجتمع طبقًا لتعاليم الكنيسة؟

– لا تُخيفونا دائمًا بكلمة القِيم ... نحن لا نعرف غير قيمةٍ واحدة، هي عدم الإضرار بأحد، والامتياز في عملٍ ينفع الآخَرين.

– مثل التفكير في حرْقِ مكتبة الكونجرس؟

وعندئذٍ صاح محامي المتَّهَمة محتجًّا ... وعنَّفَ الادِّعاء؛ لتلميحه المستمرِّ إلى كلمةٍ بدرتْ من موكِّلته عن خطْرةٍ من الخطرات لم تأخذْها على سبيل الجدِّ ... وطالَبَه بمراجعة المستندات التي في ملف الدعوى، ومنها شهادات التفوُّق والامتياز في الدراسات الجامعية وشهادات الثناء والتقدير من رؤسائها في العمل بمكتبة الكونجرس.

فأطرَقَ المدَّعي العام قليلًا ... ثم رفَعَ رأسه واستأنف الاستجوابَ قائلًا: ليس هناك اعتراضٌ على امتيازكِ الدراسي والعملي ... ولكنَّ الاتِّهام موجَّه إلى انحرافكِ الاجتماعي.

– عندما يكون المجتمع نفسه منحرِفًا فكلُّ شيءٍ فيه يبدو كذلك.

– ولماذا لا تكونين أنت المنحرِفة وتَرَين المجتمع كذلك؟

– على هذا المجتمع إذن أن يُثبت أنَّه لم ينحرف إلى العُدوان، وأنَّه ليس مجتمعًا عدوانيًّا خطِرًا على سلام البشرية.

– إذا كنتِ تَرَين من حقِّكِ أن تكيلي التُّهم لهذا المجتمع، وأن تعملي مع غيركِ من الشباب المنحرف المتهوِّر على تخريب أُسُسه وتدمير قِيَمه، أليس من الواجب الضروري على هذا المجتمع أن يُطاردكم بشتَّى الوسائل ويزجركم ويعاقبكم ويردَّكم إلى الصواب.

– الصواب؟ أيُّ صواب؟ ... ما من أحدٍ يثِقُ في صوابٍ يأتي من مجتمعٍ دمَّر ثقتنا فيه، وجعل آفاق مستقبلنا حمراء بالدماء ... كلُّ أزمةِ العصر أنَّنا فقَدنَا الثقة.

– ألَا ترون أنَّكم ضحيةُ تدليل المجتمع لكم أكثر ممَّا ينبغي، وأنَّ الطريقة الوحيدة لإصلاحكم هي أخذكم بالشدَّة؟

– ونحن ننتظر آمِلين هذه الشدَّة؟

– آمِلين؟ ما معنى ذلك؟

– معناه أنَّ أيَّ مقاومة لنا لن تُفلح، بل ستؤدِّي إلى زيادة الثورة عليكم، ثم إلى الانفجار.

– أتظنُّون أنَّ القمع والعقاب لا ينفع؟

– جرِّبوا ... ضعُونا على الصَّليب كما وضعوا المسيح؛ لقد رفعوه على الخشبة فرأتْه البشرية كلُّها، وستظلُّ تراه وتسمع صوته وهو يقول: «يا رب اغفر لهم؛ فهم لا يعرفون ما يفعلون.» ... وسنقول نحن أيضًا: «اغفر لأهل عصرنا؛ فهم لا يعرفون في أيِّ مجتمعٍ يعيشون.»

– ألَا شيءَ يُعجبكم على الإطلاق في هذا المجتمع؟ أكلُّ شيءٍ فيه تريدون رجْمَه بالحجارة؟

– لا ... أبدًا ... هناك أشياءُ عظيمةٌ وجميلةٌ لا بد من صيانتها ونقْلِها إلى الأجيال الجديدة والعصر الجديد، والقرن الحادي والعشرين.

– ومَن الذي يصُونها وينقلها؟ هذه الأجيال الجديدة من الشباب الضائع المخدَّر المستهتِر المخرِّب المتصعلِك الهائم النائم في الطُّرقات؟

– هؤلاء كما قُلنا هُم الطلائع المضحَّاة، هُم فِرَق الانتحار ... هُم الطيور المهاجِرة التي تسقط في البحر؛ ليصِلَ غيرُها سالمًا إلى البرِّ ... هُم الذين يتقدَّمون في كلِّ ثورات التاريخ برفْعِ رايات العصيان ويُطلقون الصيحات الأُولى المشوَّشة والشعارات المتطرِّفة، وتختلط عندهم الأفكار الجريئة بحركات الشغب الطائشة ... الغوغائية ... ولكن بعد ذلك هي الثورة.

– ماذا تقصدين بالثورة هنا؟

– أقصد ثورة الشباب الحقيقية، التي بدأتْ ببعض المظاهر ككلِّ الثورات، وبرفض الوصاية على أسلوب حياتهم الجديدة، ليشعُروا أنَّ شيئًا قد تغيَّر، ويشرعوا بعد ذلك في حمْلِ مسئولياتهم الكُبرى لتغيير وجه العالم.

– وكيف يغيِّرون وجهَ العالم؟ بتخريبِ ملامحه؟

– نعم ... ملامحه القبيحة السيئة ... يجب أن تتذكَروا أنَّ هذه الأجيال الجديدة التي تشاهدونها تمرح في الظاهر كما تشاء، هي في الباطن تلك التي تملأ مقاعد الجامعات والمكتبات وتنكبُّ تبحث في المعامِل تحت العدسات ... وهي التي ستجرِّد وتفحص كلَّ مُنجَزات البشرية العظيمة النافعة؛ لتزيد عليها وتنقلها إلى القرن الحادي والعشرين ... كلُّ ما تطلبه منكم أن تتخفَّفوا قليلًا من عُقدة الوعظ والزجر ومن شهوة البطش والقهر ... فالأجيال الجديدة فيها غريزة البقاء الحضاري، وتعرف واجبها في المحافظة على حضارة الإنسان والاستمرار بها في طريق التطوُّر والتقدُّم بأسلوبِ حياتها هي الجديدة، لا بأسلوب حياتكم أنتم!

– إنكِ لم تردِّي على التُّهمة، بل تحاولين التهرُّب بالكلام الخطابي ... باختصارٍ، هل أنتِ معترِفة بالشُّروع في تخريب تمثال الحريَّة؟ أجيبي بنعم أو بلا!

– لا.

– يكفي هذا ... شكرًا.

والْتفت إلى المحلَّفين وقال: إنَّ المتَّهَمة كما لاحظتُم تصرُّ هي وشركاؤها على تكذيب الوقائع الملموسة وتغليف الجريمة بستارٍ من دُخان العبارات الرنَّانة ... وهم يردِّدون أنَّ القضية هي قضية القرن الحادي والعشرين ... ولكنَّ الحقيقة أنَّها قضيةُ تخريب المجتمع الإمبريالي الرأسمالي ... مجتمعكم، مجتمعنا الذي نشأنا فيه، ويجب أن تتذكَّروا ذلك.

ورفَعَ القاضي الجلسة على أن تُستأنف في اليوم التالي.

ولكنِّي في اليوم التالي لم أستطع النهوض من فِراشي ... فقد مرضتُ بفضل الأكل في المطاعم الأمريكية الذي لم تتقبَّله معدتي. وما إن رأيتُ صاحبي الصحفي حتى صارحتُه برغبتي في العودة إلى بلدي بأول طائرة ... فحاول إقناعي بالانتظار حتى نعرف الحُكم في القضية ... فقلتُ له: إنَّ الحكم لا يهمُّني، والمهمُّ عندي هو القضية نفسها ... وقد عرفتُ منها أشياءَ كثيرةً ... فامتثل ... وقام يحجز لي مكانًا بالطائرة، وودَّعني بحرارة ... ولم يمضِ قليلٌ حتى كنتُ أحلِّق في الجوِّ فوق تمثال الحرية وأسترجع ما دار بشأنه من كلام ... ووصلتُ إلى وطني بسلام ... وما إن استعدتُ بعض الصحة حتى أمسكتُ بالقلم وشرعتُ أدوِّن في هذه السطور ما رأيتُ وسمعتُ.

الفـــــهـــــرس

مقدمة
حلقات الأجيال
تبعات الأجيال
انفصال الأجيال
تصادُم الأجيال
تجاهُل الأجيال
حرمان الأبناء
صُنع الأجيال
أجيال الطبيعة
تنوُّع الأجيال
مبدأ الأجيال القادمة
شبَحُ جيلٍ
بين جيلَين
تلاقي الأجيال
مسئولية أدباء الشباب
الشباب والتجديد في الشعر
تحذير للشِّعر الجديد عند الشباب
الصِّدق أساس التجديد عند الشباب
الشباب والشيطان
البعث على يد الشباب
قضية القرن الحادي والعشرين